

الراوى هو الشعراوى

مذكرات إمام الدعاة

محمد زايد



دار الشروق

مذكرات إمام الدعاة

الطبعة الأولى
٢٧ يونيو ١٩٩٨

الطبعة الثانية
٣ يوليو ١٩٩٨

الطبعة الثالثة
٢٥ يوليو ١٩٩٨

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيدي بيه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

محمد زايد

الراوي هو الشـعـراوي

مذكرات إمام الدعاة

دار الشروق

مقدمة

أروي للأخ الصديق محمد زايد في صفحة
اهتمامات الناس في حلقات سلسلة أسبوعياً ، عندما
يمن الله على عبده بقدر من التحسن في صحته ، وبمنحه
بعضاً من عفوه وعافيته ، حكاياتي مع الزمان أو
حكايات الزمان معي منذ كنت تلميذاً في كتاب قريتي
«دقادوس» ، إلى أن بلغت ما يعرفون ، وسوف ننشر
حصيلة كل ذلك في كتاب إن شاء الله.

محمد متولى الشعراوى

رحلة حياة زاخرة بالعلم النافع

فضيلة الإمام الأكبر

محمد سيد طنطاوى - شيخ الأزهر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه
وبعد : فهذه مذكرات لشيخنا وأستاذنا محمد متولى الشعراوى - طيب الله ثراه
- رواها للأستاذ الفاضل محمد زايد .

وقد سعدت بقراءتها فرأيت فيها رحلة حياة زاخرة بالعلم النافع ، وبالكفاح
التواصل من أجل خدمة الدين والفضائل والوطن .

تحدث فيها شيخنا عن حفظه للقرآن الكريم فى كُتّاب «الشيخ
عبدالرحمن» ، وعن محاوراته مع شيخه ومع والده - رحمهما الله -

وتحدث فيها شيخنا عن تأثيره بحفظ القرآن الكريم ، وعن حبه له ، وعن
الإرشادات الحكيمة التى تعلمها من شيخه «الشيخ عبدالرحمن» ، وعن
الضربات التى بقى أثرها فى نفسه إلى زمن طويل .

وتحدث فيها شيخنا عن مجالس العلم التى كان يهواها ويهوى الاستماع
إلى المناقشات التى تدور فيها ، كما حدث بين الشيخ عبدالعزيز رئيس قسم
الوعظ بمدينة «ميت غمر» وبين والد الشيخ الشعراوى - رحمهما الله - .

وتحدث شيخنا عن أشعاره التي جادت بها قريحته في مطلع حياته، وكانت تمتاز بخفة الظل، وكيف أن الناس كانوا يتلقونها بالسُرور والابتهاج.

وتحدث شيخنا عن زهده في الالتحاق بالأزهر، وعن إصرار والده - رحمه الله - على التحاقه بالأزهر، وعن المطالب العسيرة التي يطلبها من والده لكي يثنيه عن التحاقه بالأزهر، إلا أن الأب الفاضل كان مصراً كل الإصرار على إلحاق ابنه بالأزهر ليكون عالماً من علمائه.

وتحدث شيخنا وهو في السنة الثالثة الابتدائية عن مطالبه من والده أن يشتري له كتباً ضخمة، وكان قصده من والده أن يمتنع عن ذلك، ولكن الوالد خيب ظنه، فاشتري له ما أراد من مراجع ضخمة.

وتحدث شيخنا في مذكراته عن رؤيته لأول مرة للزعيم سعد زغلول، الذي كانت قريته مجاورة لقرية شيخنا، وعن قصة وقوعه من فوق حماره، وعلاجه في قرية «دقادوس» التي كانت بها أسرة مشهورة بجبر الكسور.

وتحدث شيخنا عن مساجلاته مع الشاعر «عبد الحميد الديب» وكيف أنه رد عليه بأنه يجيد في شعره الغزل المتورع، والهجاء اللاذع لمن يستحقه.

وتحدث شيخنا عن مشاركته في الثورات الوطنية بشعره وبشره، وكيف أنه ألف القصائد الطويلة، وكتب المقالات الكثيرة، التي أدت به إلى دخول السجن لمدة شهر.

كما تحدث فضيلته عن نقله من معهد الزقازيق إلى معهد الإسكندرية، بسبب معارضته لكثير من الأمور التي كانت تجري في الأزهر...

ثم عن محاوراته مع السيد جمال سالم عند ما زار الأزهر.

كما تحدث فضيلته عن محاوراته مع أمير الشعراء أحمد شوقي - رحمه الله -

وتحدث فضيلته عن زعامته للطلاب ، وعن قصة زواجه ، وعن رحلته مع الحياة مدرسا بالأزهر ، ثم بالسعودية ، ثم عن أحواله المختلفة بعد ذلك .
والحق أن هذه المذكرات هي دروس زاخرة بتجارب الحياة ، التي يجب على كل عاقل أن يستفيد منها ما ينفعه في دينه وفي دنياه .
رحم الله شيخنا إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وألحقنا به مع النبیین والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

عظيم من القلة التى تزدهر بهم الحياة

د. محمود حمدى زقزوق - وزير الأوقاف

كثيرون يأتون إلى هذه الدنيا ويخرجون منها دون أن يشعروا بهم أحد، ودون أن يكون لهم فيها أثر أو ذكر. وقليل من الناس تزدهر بهم الحياة، ويمثلون الدنيا عطاء بفضلهم وعلمهم وما يقدمونه من خير للناس. وهؤلاء هم العظماء الذين بهم ومعهم يكون للحياة معنى. فهم المصاييح الهادية، وهم الزهور التى تنشر أريجها فى كل مكان فتتبعش النفوس بالبهجة، وتجعل الناس يشعرون بقيمة الحياة وبقيمة الإنسان.

وإذا كان ذلك ينطبق على العظماء بصفة عامة فإن عظماء الدين لهم شأن آخر، وذلك لما يمثله الدين من عمق عميق فى النفوس ومكانة راسخة فى القلوب. ومن هنا فإن الأثر الذى يتركه هؤلاء فى نفوس الناس وعقولهم يعد أثراً بالغ الأهمية فى توجيه فكر الناس وسلوكهم وموقفهم من الحياة والمجتمع والكون بصفة عامة.

ومن هؤلاء العظماء الأفاضل كان عالمنا الجليل إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله ورضى عنه - فقد عرفناه علماً من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر وقطباً من أقطاب المفسرين العظام لكتاب الله على هدى وبصيرة، بأسلوب فريد يأخذ بالألباب ويأسر القلوب والعقول، مما جعل

الناس يلتفتون حوله ، يغترفون من علمه الفياض ، وينتفعون بخواطره الإيمانية ، وإشراقاته الروحية ، التى تنطلق من قلب مخلص عامر بالإيمان مفعم بالحب لله ، فتدخل ببسر وسهولة إلى قلوب الملايين من مريديه ومحبيه فى مصر والعالمين العربى والإسلامى . فقد حباه الله بنعمة القبول لدى الناس ، والقدرة الفائقة على تبسيط حقائق الدين وأسرار القرآن حتى تكون مفهومة لجيمع الناس من كل المستويات الثقافية .

ولم يكن الشيخ الشعراوى مجرد عالم دين يفتى ويفسر القرآن الكريم ، فما أكثر العلماء الذين يقومون بهذه المهمة ، وإنما كان يمثل ظاهرة فريدة فى مجال الدعوة الإسلامية يندر أن يجود الزمان بمثلها .

لقد امتد عطاء الشيخ الشعراوى إلى أكثر من نصف قرن من الزمان ، فى عصر اختلطت فيه المفاهيم ، واضطربت فيه الرؤى الدينية ، ورأينا أديعاء العلم الدينى يزيفون الحقائق ، ويميلون بالدين إلى فهمهم السقيم ، ويجذبونه إلى فكرهم المريض ، فكان الشيخ الشعراوى نجما ساطعا يضىء فى سماء الأمة يجلبلج صوته بالحق فيزهق باطل الأديعاء .

وقد ظل يجاهد بفكره وعلمه وقلمه حتى آخر رمق فى حياته . ولم يمنعه المرض من الاستمرار فى أداء رسالته الدينية التنويرية التى نذر لها كل حياته وكل ذرة فى كيانه .

لقد تعلقت قلوب الملايين وعقولهم فى أرجاء عالمنا العربى الإسلامى بهذا الشيخ الجليل . وكان تعلقهم به وحبهم له وتشوقهم للاستماع إليه والاعتراف من فيض علمه شئ يفوق التصور ويجل عن الوصف . وقليل من الناس الذين يذكرهم التاريخ يحظون بمثل هذه المكانة الرفيعة والمنزلة الجليلة . ولم يدخر الشيخ وسعا ولم يأل جهدا فى التجاوب إلى أبعد الحدود مع هذا الحب

الغامر من جماهير الناس . فلم ييخل عليهم بشيء مما أفاضه الله عليه من علم مهما كلفه ذلك من مشاق ، بل كان - فى أثناء مرضه - ينسى مرضه ويندفع كالسيل الجارف فى عطائه العلمى وخواطره الإيمانية يحيى موات القلوب ، وينعش العقول ، ويضئ جوانب النفوس ، فيجدد فيها الأمل ويلوؤها بالطمأنينة ، ويقربها من خالق الكون ورب الوجود .

لقد كان الشيخ - رحمه الله ورضى عنه - ودودا ، بسيطا ، متواضعا ، بشوشا ، سخيا ، مخلصا . وكان هذا الإخلاص هو سر عظمته ، وفى الوقت نفسه هو سر نجاحه فى أداء دوره القدرى فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ أمتنا الإسلامية .

وإذا كان الشيخ قد رحل عن دنيانا ليلقى ربه الذى طالما تشوق للقاءه واستعد لهذا اللقاء فإن عزاءنا فيه ما تركه لنا من علم غزير تنتفع به الأجيال المتعاقبة .

ف وفاة الشيخ إذن ليست نهاية العهد به . فذكره خالدة مصداقا لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - [إذا مات الميت انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له] .

وقد اجتمعت للشيخ الشعراوى هذه الفضائل الثلاثة : الصدقة الجارية ، والعلم الذى ينتفع به الناس ، والذرية الصالحة التى تدعو له بالمغفرة ، بالإضافة إلى قلوب محبيه وتلامذته ومريديه ، فى كل مكان ، الذين يدعون له بالرحمة والرضوان .

نسأل الله أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

إمام الدعاة ومجدد هذا القرن

د. أحمد عمر هاشم - رئيس جامعة الأزهر

من عدول أمتنا الإسلامية ، فى هذا القرن ، إمام الدعاة ، المجدد المجتهد
المفسر الحافظ الحجة الإمام الشعراوى . .

إنه واحد من الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، أحب القرآن ، فأفضى إليه
بأسراره ، وأحب سيد ولد عدنان ، فأفاض عليه من أنواره ، ومن هنا برزت
شخصية إمامنا الجليل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى متميزة فى
تفسيره ، مؤثرة فى الوجدان المسلم ، إنه صاحب فكر معطاء ، له من
الخصائص العلمية والروحية ما لم يتوافر لسواه ، فإن عطاء الله تعالى له فى
هذا الجانب عطاء يجل عن النظر ، ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة
فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ البقرة : ٢٦٩ . وجميع الناس ،
وكل العلماء ، وطلاب العلم والمعرفة يقرءون ويسمعون ويتحدثون ومن
الممكن أن يتساوى البعض فى مقدار القراءة والاطلاع والسماع والحديث ، أما
مقدار العطاء الإلهى من العلم للإنسان فهذا ما لا يتساوى الناس فيه ، ففى
الحديث يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من يرد الله به خيراً يفقهه
فى الدين وإنما أنا قاسم والله عز وجل يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على
أمر الله لا يغيرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » رواه البخارى .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يوضح أنه قاسم يقسم بيننا ما أوحى

إليه بما أمر بتبليغه إلينا ولا يخص به بعض أمته دون البعض « والله يعطى » أى يعطى الله الفهم للناس ، ويحظى كل إنسان على قدر ما تعلقت إرادة الله تعالى في تفاوتون فى الفهم .

وهذا هو التميز الذى تميز به الإمام الشعراوى إلى جانب العلم الموجود فى الكتب الذى يتساوى فيه كل الناس ، أما العطاء الإلهى فى الفهم والاستنباط فإنه يأتى نتيجة الصلة الوثيقة بالله تعالى . وهو ما أطلق عليه علماء التفسير وعلوم القرآن اسم « علم الموهبة » وهو ما يهبه الله لعباده المتقين ، ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ البقرة : ٢٨٢ .

ولأن من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، فإذا ما انضم إلى هذا ما منح الله به الإمام الشعراوى من حافظة قوية ، وعلم غزير ، وذكاء متوقد ، وعلم بتفسير القرآن وأسباب النزول ، ويعلم الحديث وأسباب الورد ، والأدب والشعر واللغات والعلوم الأخرى ، رأينا إلى أى مدى تبلغ قدراته العلمية والتحليلية التى يتجلى بها فى تفسيره وتحليله وتطوافه بمستمعيه أو القارئ له .

والإمام الشعراوى يحمل كل خصائص الإمامة بلا منازع ، يجذبك مجلسه كما يجذبك حديثه ، ويؤثر فيك صمته ووقاره وإن لم يتحدث ، فجلسه يتمنى ألا يفارقه ، وأنا أحد الذين يستشعرون هذا ويقراءون فى وجهه الوقار والنور والنضرة التى دعا بها رسول الله ﷺ حين قال : « نضراً لله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » رواه أبو داود والترمذى . وقد علق على هذا الدعاء النبوى الوارد فى الحديث سيدنا سفيان بن عيينة فقال - رضى الله عنه - : « ليس من أهل الحديث أحد إلا وفى وجهه نضرة لهذا الحديث » .

من أجل هذا كانت سيرته الذاتية جديرة بأن تسجل ، وكانت مذكرات حياته ، وماضى ذكرياته ، يجب ألا تهمل فى دوامة الحياة العلمية الممتلئة ، بل إن من الواجب أن تسجل ، وأن يتعرف عليها الأجيال القادمة ، فسيقول أبنائنا وأحفادنا - مستقبلاً - إننا عاصرنا الإمام الشعراوى ورأيناه ، فهو أحد الأئمة القلائل الذين يظهرون فى الحياة على فترات متباعدة . والناظر إلى هذا التفوق العلمى والروحى ، يرى أنه منذ فترة الشباب والنزعة الدينية والروحية تتبدى فى كل خطاه ، حتى بلغت به شجاعته الأدبية ، وغيرته الدينية وهو فى مقتبل الشباب أيام كان طالباً صغيراً ، أنه قرأ قصيدة نشرت لأحمد شوقى أمير الشعراء - رحمه الله - يقول فيها :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فدفعته غيرته أن يذهب إليه ، وأن يقول له : إن لنا عتاباً عليك ؛ فسأله أحمد شوقى : فيم العتاب ؟

قال له ما هى حكاية : رمضان ولى هاتها يا ساقى . . ؟

فضحك كثيراً وقال : أستم حافظين للقرآن الكريم ١٩

فقال بالطبع نحفظه ، فقال : ألا تعرفون الآية التى تقول : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ ألم ترأنهم فى كل واد يهييمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٦ .

قال الشيخ : « وكان ردّ أفحمننا . وبعدها بستة أشهر مات رحمه الله » .

وشاء الله تعالى لإمام الدعاة أن يعيش عمراً بدأه بمرحلة شباب مصون ، فقد تزوج مبكراً منذ المرحلة التعليمية الابتدائية ، وهى المرحلة نفسها التى تزوج فيها حبيبته وصديقه العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود شيخ

الأزهر الأسبق - رحمه الله - والذي ترتبط جوانب كثيرة من حياته بحياة الإمام الشعراوي .

والزواج المبكر للشباب حين يكون موسراً وقادراً على الزواج نعمة كبرى ، وحفظ لحياة الشاب ، وسلوك لطريق الاستقامة وتحمل المسئولية والرجولة الناضجة والمثمرة .

ومذكرات شيخنا العارف بالله الإمام الشعراوي ، حين بدأ يحمل معاني التراث والأصالة والمجد العلمي ، تسمى مذكراته باتجاهه الروحي المبكر واستقامته الجادة في تعرفه واتصاله بثلاثة من كبار الأولياء الصالحين بالشرقية ، فقد حدثني أكثر من مرة بأن أعظم ما يعتز به في أيام طلب العلم بالزقازيق ما كان يحمله في قلبه وعواطفه من حب وصلة إلى كل من هؤلاء الأولياء العارفين بالله بالشرقية : العارف بالله الشيخ أبو هاشم ، والعارف بالله الشيخ أبو مسلم ، والعارف بالله الشيخ أبو خليل رضى الله عنهم وعن جميع الأولياء وعباد الله الصالحين . وإذا كنا نعتز بالإسلام الذي ألجج لإمام الدعاة وغيره من الأئمة الهداة ، فإننا نعتز بالأزهر الشريف الذي صان علوم الإسلام وحماها ، ودافع عنها ونشرها ، والذي فيه تعلم الإمام ومنه تخرج ، وبين أروقته نشأ ، وعلى أيدي علمائه أخذ طريقه في الاجتهاد والتجديد ، حتى أصبح أحد الأئمة المجددين الذين يمثلون ما يعنيه الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة ، وقد علق الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - على هذا الحديث بقوله : « والظاهر أنه يعم جملة من العلماء من كل طائفة وكل صنف من مفسر ومحدث وفقه ونحوي ولغوي وغيرهم » .

فهو أحد المجددين وعدول الإسلام المتقين ، الذين ينفون عنه تحريف الغالية وانتحال المبطلية ، وتأويل الجاهلية . .

لقد عاصر إمامنا الجليل حقبة تاريخية ، تموج بأحداث سياسية منذ كان طالباً وزعيماً للطلاب ، ولكن الإرادة الإلهية صانته حتى أكمل مشوار حياة الطلب ، وكان من الممكن أن يتوقف عند مرحلة من مراحل الطريق ، أو تبهره الأضواء الحضارية . ولكن العناية كانت تدخره مجدداً لهذا العصر ، ناشراً الثقافة القرآنية المجيدة ، باعثاً صحوة إسلامية راشدة ، تبنى ولا تهدم ، وتوحد ولا تفرق ، وتهدي الضال ، وترشد الخائر . .

إنه بحق من أعلام الأزهر الشريف قلعة الإسلام ومنارة الهدى ، وكعبة العلم ، حَبَّ الله به أرض الكنانة ، كما حَبَّ الله بالبيت الحرام مكة المكرمة ، ورحم الله شوقي إذ يقول :

إن الذى جعل العتيق مثابة جعل الكنانى المبارك كوثرا

وإذا كانت حياة الإمام الجليل - كأيّة شخصية عامة - مقروءة معروفة للناس ، فإن فى حياته صفحات أخرى لا يعرفها إلا الواحد بعد الواحد . . منها البذل والسخاء ، والجود والإنفاق على الفقراء ، والتبرع لمشروعات الخير وأعمال البر وصنائع المعروف ، فكم من معاهد دينية أقامها ، وكم من مؤسسات بر أنشأها ، وكم من صنائع خير قدمها . لقد رأيتُه ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر ، وتدفعه نزعته الروحية ، وعاطفته الصوفية أن يدع أجواء الاستجمام ومناخ الراحة ، وأحسن المواقع للإقامة ويؤثر الإقامة على مقربة من مسجد السيدة نفيسة - رضى الله عنها - ، فتعلقه بآل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - يدفعه إلى هناك ليقيم « مبرة » يبذل فيها - عن سخاء - كل ما يستطيع ليكرم وفادة الغرباء ، ويغدق على الفقراء . وشيخنا المفضل يتمتع بأخلاق فريدة ،

وسجايا حميدة تذكر حين نلقاه ، بصحابة رسول الله - عليه أفضل الصلاة وأتم
السلام - فهو جم متواضع جياش العاطفة ، متهلل المحيا ، موصول - دائماً -
بالله ، وإنى لأضرع إلى الله تعالى أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

الفاء

من عبد مؤمن في «دار الفناء» . . إلى عالم جليل في «دار البقاء» . . أهدى
سطورا من نور . . لست أنا كاتبها . . لكنني متلقيها . . رواها لي إمام الدعاة
فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى على فترات . . تقاربت أحيانا وهو -
رحمه الله - يقاوم المرض في صبر واستبشار . . وتباعدت أحيانا حين كان
يشتد عليه المرض فيركن وقتا إلى الراحة والهدوء . . ولكن دون أن يشكو
أبدا . . فقد كان رضاؤه كاملا بما قدره الله له . . وكان إيمانه عميقا بأن الله دائما
معه وإلى جواره . . وكان يردد عبارته الشهيرة لكل من يلقيه أو يجالسه وهم
كثيرون: كيف أشكو لمخلوق وأنا في معية الخالق . .

هذه حكاياته مع الزمان . . وحكايات الزمان معه . . كما أحب أن يصف
مذكراته . . أهديتها إلى صاحبها في «رقدة الخلود» . . تسجيلا لمسيرة نبع
«الخواطر الإيمانية» . . الذى سكن سويداء القلوب . . وأثرى فكر ملايين
المؤمنين . . بما روى به من علمه النافع . . تعطش البشر إلى مزيد من إنارة
القلوب والنفوس . . بما يعينهم على مواجهة ماديات هذا الزمان .

محمد زايد

الدنيا يجب أن تكون فى أحضان الدين والدين يجب أن يكون أستاذ الدنيا

قال الداعية الإسلامى الكبير ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فى مقدمة ما خص به « الأهرام » من رواية تفصيلية مسلسلية لتاريخ وتجارب حياته . . منذ كان تلميذاً فى كُتَّاب قريته « دقادوس » . . إلى أن أصبح يسكن الآن قلب وعقل كل مؤمن فى الأمة الإسلامية . قال العالم الكبير بأدبه الجم :
« مجرد طلب مذكرات حياتى شهادة لى بأن حياتى أصبحت موضوع دراسة . . » .

ولهذا أظن أنه بإجابة هذا الطلب ، لعل حضرات القراء يصلون أعمارهم بأعمار المجربين قبلهم . . وبذلك يثمرون حياتهم فى أقصر وقت ممكن . . ولعل ما يوفرونه فى استثمار تجارب الآخرين من الوقت ، يمثل ما يفيض الله به عليهم . من تجارب لسواهم . .
أسأل الله أن يجعل هذا الباب مقدمة أبواب أخرى لتجارب غيرى . . والله الموفق أولاً والموفق أخيراً . .

ويزيد هذه التجارب شرفاً وعمقاً ، أنها فى حضانة منهج سماوى من خالق هذا الإنسان ، وهو أعلم بقانون حياته ، وأعلم بتقصير المسافة لمهمته . . حتى

لا تتأرجح الأنظار بين آراء بشر لا يحكمهم إلا هوى . . يختلف مع أهواء الآخرين . . والحياة لا تستقيم إلا بالاتحاد مع هوى . . ولذلك يجب أن يكون هوى البشر فيما خصه الله بالبشر .

ويجب أن يلاحظ أنه مع الله لا يوجد دين ودنيا . . فالدنيا يجب أن تكون في أحضان الدين . . والدين يجب أن يكون أستاذ الدنيا . . ولأن الأصل في الدين ألا يتفق مع سياسة بشر . . وإلا كان البشر مستدركاً على من خلق البشر . . فلهذا لن تتناول مذكراتي ما تختلف فيه السياسات على اختلاف الأهواء ، لأن هوانا كما قال الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

« وأبدأ اليوم حكاياتي مع الزمان . . أو حكايات الزمان معي » .

هَذَا ابْنِي اكسر له ضلعاً .. وأنا أعالجه

وبدأت في ظل أحداث ثورة ١٩ رحلة التعليم الديني للشعراوي الابن . .
في كتاب « سيدنا الشيخ عبد الرحمن » . . استجابة لرغبة أبيه . وربما من أعز
وأعلى المعاني التي يحتفظ بها من ذكريات هذه المرحلة الأولى في كتاب
القرية . . قوله في إجلال واحترام :

« إن الفقهاء الذين كانوا يقومون على تحفيظ القرآن . . كانوا يسمونهم
وقتها سيدنا . . ولك أن تقدر مدى مكانة واحترام الذين يطلق عليهم الناس
هذا اللقب . . حتى العمدة كان يقول : سيدنا فين . . وابعثوا عن سيدنا . .
وكان هذا يدل على طبيعة البلاد ووجدانها الديني . . كانت الناس تحب كل
من يسمى سيدنا . . وسيدنا ذهب وسيدنا جاء . . وهذا اللقب موجود في كل
الأرياف . . وله احترامه الكبير » .

ومن عند ليلة الذهاب لأول مقابلة مع سيدنا . . يستأنف فضيلة الشيخ
الشعراوي مذكراته قائلاً :

« قبل أن يأخذني أبي إلى كتاب سيدنا ، وأنا صغير . . أعدني لهذا اللقاء
. . اشترى لي كمية هدم كويسة . . وأنا أتساءل ليلة ذهابي للكتاب بيني وبين

نفسى : يارب . . ماذا يريد أن يفعل بى أبى ؟! .

وفى الصباح ، صلينا الفجر وتناولنا الفطور . . وأخذنى أبى من يدى ، وذهب إلى كتاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن . . وسلمنى والدى إليه . . وهو يقول له :

« هذا ابنى ، اكسر له « ضلع » . . وأنا أعالجه ! » .

ثم أشبعه توصيات من هذا النوع . .

وسأله سيدنا : ابنك اسمه إيه ؟

فرد والدى :

- اسمه الرسمى محمد . . لكن سته لأمه أسمته أمينا . . وهى تحفظ القرآء الكريم . . فيصبح له اسمان .

فقممت أنا من مكانى ، وقلت لهما :

لا . . هناك اسم ثالث .

فرد الشيخ عبد الرحمن :

ما هو الاسم الثالث يا بنى ؟

فقاطعتة قائلا :

قل لى ياوله . . مش يا بنى .

فسألنى : لماذا ؟

فقلت لسيدنا : لأن ابن عمى ينادينى دائما ياوله . . ما يقوليش لا يا محمد ولا يا أمين . . يقول لى ياوله .

ضحك سيدنا الشيخ ، وقال :

ياوله دى يعنى ياولد . . وهذه تقال لكل واحد فى سنك .

فقلت لسيدنا :

أهم بيقولوا لى كده . . واحد يقول يا محمد . . وواحد يقول يا أمين . .
وواحد يقول ياوله . . لحبطونى . . فتعودت على وله .

وتوجه سيدنا بالحديث إلى أبى سأله :

يا أبا عبد الحافظ . أنت مش عايز تعلم ابنك !

وهنا - فيما يضيف الشيخ الشعراوى كانت أول وقفة عقلية لى . . فعبد
الحافظ هو جدى . . فكيف ينادى سيدنا الشيخ ابنه الذى هو والدى . . بيا أبا
عبد الحافظ . . وهذا ما واجهت به أبى بعد انصرافنا من الكتاب . . قلت
لأبى :

ألست أنت ابن عبد الحافظ ؟

فرد والدى : نعم . .

وقلت له : إذن . . كيف يناديك سيدنا يا أبا عبد الحافظ ؟

وبدأ والدى يجيب عن السؤال ، قدر استطاعته . . فقال لى مثلا :

لما يكون واحد لسه ما خلفش . . وله أب . . يقولوا له يا أبا فلان على اسم
والده . . تفاؤلا .

وذهب والدى إلى الشيخ عطا ، جد الشيخ سيد سعود وكيل مشيخة
الأزهر الآن ، وقال له :

- الولد سألنى سؤالاً عن كذا وكذا ماهو الجواب يا سيدنا ؟

فأجاب الشيخ عطا :

- والله أنا اللي أفهمه أن كلمة يا أبا فلان نشأت من أيام سيدنا عليّ ، لأنه كان له الحسن والحسين . . فكانوا يسمون الحسن أبا علي . .

وعندما عدنا إلى منزلنا ، قال لي والدي : «إن هذه المسألة لم تدخل عقله . . فظلت هذه المسألة تصاحبني ، وتقلق ذهني من سن سبع سنوات . . حتى بلغت الكفاءة» ؛ فقلت لنفسى : «لعلهم يقصدون شيئا» ، يعنى أن الأب عندما يصبح مسناً . . ابنه الذى يحمله وهو الذى يتولى أمره . . مثل عمى الشيخ أحمد الشناوى . . كنا نرى ابنه الكبير عبد البارى يحمله . . ويقول له أنا عايز أروح النهارده المسجد . . لأصلى الجمعة . . فيحمله على كتفه ويذهب به إلى المسجد . . فقلت لنفسى : لعلهم يتفاءلون بمناداة يا أبا عبد الحافظ لأن الإنسان عندما يكبر مثلما قال تعالى : ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ (الروم : ٥٤) ، يصبح فى حاجة ليس لابن ولكن لأب . . وهذه المسألة أوجدت عندى عملية فكرية إلى أن انتهيت فيها إلى رأى ، وقلت تعبيراً عنه كلمة مشهورة فى التوجيهية وهى :

« الزواج المبكر أقصر طريق ليس لإنجاب ابن ، ولكن لإنجاب أب . . يعولك فى طفولة الشيخوخة ».

وتربى عندى الاعتقاد من يومها . . بأنك عندما تقول يا أبا فلان . . يطول عمره إلى أن يصبح غير قادر . . ويكون له ابن هو الذى يشيله ويحطه . . ويصبح ابنه هو والده فى طفولة الشيخوخة . . وهذا الاعتقاد كان شأني فى كل شيء . . فعندما رأيت شيخاً جليلاً يضرب به المثل لمعاصرتة أربعة أجيال ، وكنت قد أصبحت عالماً بالأزهر . . يدخل علينا ويقول : اضحكوا . . فقال له خالى الشيخ أحمد - رحمهم الله جميعاً - : «نضحك على إيه يا حاج حامد ؟»

فرد قائلا : بنت ابن ابن ابني ولدت الليلة . . فرد عليه خالي : يا سلام بقيت للرابع يا حاج حامد . . ولأن خالي كان يعرف أنني أقرض الشعر . . فقال لى : والله المسألة دى عايزة ينقال فيها شعر . . فطلبت أن يتركونى بعض الوقت ، ثم قلت :

حبائى خالقى عمرا مديدا

وسيرنى بأنسالى سعيدا

وأمتعننى بعافية وعز

فلست أريد بعدهما مزيدا

وماذا بعد أن أضحى حفيدى

وقد وهب الإله له حفيدا

كل هذه الأفكار التى تداعت وجاءت من واقعة مناداة أبى بمناداة يا أبا عبد الحافظ . . وتعجبى من أن يكون الابن هو الأب . . وهذا يدل على أن الأفكار التى تمر بالحياة ، لو أن الإنسان استثمرها وعاشها فإنها تنمو مع غده . . وتبرز منها معان طيبة .

فى مواجهة الهجانة

بعد أن واجه فى كتاب سيدنا أول مسألة عقلية ، وتبين أبعادها فى التوجيهية . . يواصل الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد متولى الشعراوى روايته عما يعيه من أحداث الطفولة . . يقول :

لما ذهبنا إلى الكتّاب . . كانوا يطلبون منا الكتابة على اللوح . . نقرأ من المصحف ونكتب فى اللوح . . وأول ما نكتبه بالطبع « بسم الله الرحمن الرحيم » ووجدت أنا وابن خال لى واثنان من زملائى أن كتابتها فى اللوح الصغير تأخذ سطرًا بأكمله . . فقال أحدهم : لو الواحد كتبها على السبورة حتبقى أدائه ١٩ لابد أن تكبر الكتابة إلى أن تملأ عرض السبورة كلها . . وتعلمنا من هذا أن الكتابة تكبر وتصغر بحجم الحيز المطلوب . . وأخذنا نحرك فى عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » على السبورة يمينا ويسارا حتى جاءت فى منتصف السبورة . . وهذا ما نراه الآن فى كتابة عناوين الصحف ، أسفل بعضها البعض ، بنفس الاتساع . . ولكن مع اختلاف حجم الكلمات . . ومن حروف « بسم الله الرحمن الرحيم » علمنا زميلنا محمد محمود إبراهيم - وكان بالغ الذكاء ، ماشاء الله - كل حروف الهجاء من ناحية الشكل ، وأيضا من ناحية النطق . . فمثلا : الباء لو كان تحتها نقطتان تكون ياء ، ولو وضعنا نقطة فوقها بدلا من تحتها تكون نونا ، ولو وضعنا نقطتين

تكون تاء ، ولو ثلاث نقط تكون ثاء . . وهكذا جرى الحال مع بقية أحرف «بسم الله الرحمن الرحيم» .

ومن هنا ، أدركنا أن الإنسان إذا عاش مع فكرة أعجبتة . . يستطيع أن ينميها ويطور فيها تطويراً يقلل مسافة الاستذكار ، ويقرب الفائدة . . وأصبحنا ننقل هذه المسألة إلى الزملاء في كتاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن .

وهنا أتذكر أيضا ، أننا كنا نحفظ القرآن من آخره . . أى من السور القصار في خاتمته . . لكي يقول الولد منا إنه يحفظ سورة كاملة . . وليس آية فقط من سورة البقر مثلا . . وعندما جئنا إلى سورة ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ (الشرح : ١) ، كنا ننطق بدايتها ، وهي (الم) ، متصلة . . ولكن عندما بلغنا سورة البقرة ، قال لنا الفقي إن بدايتها وهي حروف (ا . ل . م) لاتنطق متصلة مثل (ألم) ، ولكن ينطق كل حرف على حدة منفصلاً . . فدهشنا من هذه التفرقة في النطق ، وسألناه : لماذا ؟ فقال : إنها سمعت هكذا . . إذن ، القرآن لا يقرأ ككتاب عادى . . ولكن لابد أن يسمع أولاً ، وإلا فما الفرق بين ا . ل . م ، وألم فى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ؟ وهذا يفسر لنا قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾ (القيامة : ١٨) ، كما سمعت . . وإياك أن تحفظ القرآن وحلك . . لابد أن تسمعه أولاً ثم تحفظه . .

ولو كنت اتبعت هذا النصيح فى صغرى ، لما ضربنى سيدنا الشيخ عبد الرحمن طويلا ، وأنا لا أعرف السبب . . إلى أن قال لى ، إننى أنطق قبل أن أصحح النطق مع الشيخ حسن ، الذى كان علينا أن نصحح معه النطق أولاً . . سألته : كيف ؟ . . قال لى : إننى هربت مع زملائى من الشيخ حسن ، لهذا قرأت ﴿ حم ﴾ عسق ﴿ فى بداية سورة الشورى هكذا : ح . م منفصلة ، ثم قرأت عسق . . أى العين والسين والقاف متصلة على طريقة (ألم) وأكدت

لى هذه العلقه فى سن مبكرة أنه لابد أن نسمع القرآن بالنطق الصحيح قبل أن نقرأه أو نحفظه .

ولما ارتقت الدنيا ، وابتكروا المسجلات . . وكان هذا بعد أن أصبحنا علماء . . قالوا إنه يمكن للإنسان أن يسمع القرآن على مسجل ثم يحفظه . . ولكن المسجل ، إذا سمعته وبدأت الحفظ ، ربما تخطئ فى النطق ولا يردك الخطأ ، وإنما الفقى يظل يردك حتى تنطق النطق الصحيح . . ويعنى هذا أنه لابد من ملقن .

وقت أن تلقينا هذه الدروس فى الطفولة ، كانت أحداث ثورة ١٩ تمر أمام عيوننا . . أناس من مختلف الطبقات والطوائف . . كبير وصغير . . فقير وغنى . . متعلم وجاهل . . كلهم تأخذهم عملية وطنية واحدة . . كلهم مرتبطون مع بعضهم البعض ويعملون العمائل الى هيه . . أنا رأيتهم بعينى وهم يحملون عربات الدلتا . . وكانت بين بنها والمنصورة ، وتمر على الرياح التوفيقى . . ويلقون بها فى الترع . . ويقومون بفك القضبان جميعهم مع بعض ، وكأنهم شخص واحد . . ويأتى الإنجليز من معسكر لهم فى بلدنا ، ويرون ما جرى . . ولا يجدون فردا واحدا يعترف على آخر . . كانت حمى وطنية تجتاح الجميع . . وقد غدوا الأطفال فى القرية التى نشأت فيها بهذه الوطنية . . إلى أن تين أثرها سنة ١٩٣٠ م . . وقت أن حكم إسماعيل صدقى البلد وألغى دستور سنة ١٩٢٣ ، وعمل دستور سنة ١٩٣٠ ، وزيف الانتخابات . . وقريتنا دقادوس وجدت تعبيرا عن وطنيتها أنه لابد أن تقاطع الانتخابات . . وفعلا قاطعت الانتخابات . . نادى المنادى قبلها بيوم : يا فلاحين ، هاتوا أكل مواشيكم لأننا مش هنخرج بكرة من الدور . . وانتوا يا عمال يا اللى فى ميت غمر ، وضبووا أرزاقكم . . هاتوا عيش من الطابونة . .

وكذا وكذا . . وأصبح يوم إضراب . . والدور كلها مسككة . . واللجنتان معقودتان بالبلد . . ولكن ولا واحد يدخلهما . . حتى نحن الصغار منعونا من الخروج .

وعندما بلغ الخبر المديرية . . أرسلت لنا كتبية لتخرج الأهالي من بيوتها . . جاء الصاغ عبد المجيد شريف . وكان وكيل الحكمدار . على رأس القوة ، ودخل القرية ، وتوجه إلى بيت من البيوت ، وكسر الباب ، وأخرج الناس الذين بداخله . . وكان بداخله سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشهابي رحمه الله . . وعندما قاوم الجنود ، ضربوه بالنار ، فمات في الحال . . وقامت المعركة . . والبلد رمت الكتيبة في البركة . . والساغ إياه انقتل . . ولم تتم الانتخابات . . وعندما ألقى صدقي بيانه في المجلس ، قال : لقد حصلنا على كذا صوت في الانتخابات . . إلا في قرية دقادوس التي امتنعت عن الانتخابات . . ومن يومها ، أنشأ صدقي شيئا اسمه هجانة . . يأتون إلى القرية بعد صلاة العصر . . ولا يخرجون منها إلا مع طلوع الشمس في اليوم التالي . . وظل البلد على هذه الحال طوال مدة حكمه لأربع سنوات . . فكنا نحتال على هذا الأمر بافتعال مياتم وما إلى ذلك . . ومن هنا تضاعفت الحمى الوطنية في البلد .

دروس من أيام « الفلكة » ١

ورغم أنه نسى أحداثا كثيرة من أيام الطفولة . . إلا أن هناك أيضا - كما يقول فضيلة الشيخ الشعراوي - أشياء كثيرة لا تنسى . . غرس كتاب « سيدنا الشيخ عبد الرحمن » بذورها . . التي أنبتت خواطر . . وكلما كبر الداعية الإسلامى الكبير ، تكبر معه الخواطر . . إلى أن يستنبط منها القضايا . . ومن أبرز الأمثلة التي يعتز بها كل الاعتزاز ، تلك الخواطر التي أبرزت له السمات المنفردة التي يتميز بها كتاب الله . . والتي يعددها هنا قائلا :

السمة الأولى التي يتميز بها القرآن أنه لا يقبل عليه إلا المتوضى . . فليس القرآن كأي كتاب آخر .

والثانية : أنه يقرؤه بشكل خاص .

والثالثة : أنه يكتب أيضا كتابة خاصة . . ففيه ألفاظ مكتوبة كتابة على غير القاعدة . . فعبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » مثلا ، ليس فى كلمة « بسم » ألف قبل السين . . ولكن « اقرأ باسم ربك » (العلق : ١) ، تجد فيها ألفا قبل السين . . وأما باقى الأسماء كلها فبدون ألف . . إذن ، القرآن له قراءة خاصة لا يقرأ بغيرها . . ومعنى هذا أنك تقرؤه كما تسمعه ، وتكتبه كتابة خاصة أيضا كما ورد لك فى المصحف .

والسمة الرابعة : أنه كلام الله المعجز . . وكماله لا يتعدى إلى غيره إلا حكماً . . وإنما أسلوباً لا . . فأنت إذا قرأت أى كتاب فى الأدب مثل العبرات للمنفلوطى . . أو ما شابه ذلك ، قد يحسن أسلوبك أو لا يحسنه . . ولكن هات الفقى الذى يحفظ القرآن منذ الرابعة عشرة ، وقل له اكتب خطاباً ؛ تجده لا يعرف . . إذن كمال القرآن البلاغى لا يتعدى إلى غيره أبداً . . يظل هو هو . . بينما أنا لو قرأت كتابين فى الأدب يتحسن أسلوبى .

إذن القرآن متميز تناولا بطهر ، وقراءة بسماع ، وكتابة بالموجود ، وكمالا لا يتعدى . . وقد صحبتنا هذه الفكرة إلى أن أصبحنا علماء كبارا ، وبدأنا نعد منها قواعد ، ونعمل منها أشياء .

وهنا أتذكر عندما ذهب بى أبى إلى كُتَّاب سيدنا أول مرة ، وقال له اكسر له ضلعاً وأنا أعالجه ، أخذت من هذا قاعدة . . لقد كان سيدنا قاسياً علىّ دون غيرى . . وكنت أجدها قسوة غير منطقية . . لأنه كان هناك أناس غيرى على قدر حالهم . . يأتون لسيدنا بالحطب على الأكثر كل يوم خميس . . وأما نحن ، فكنا نحمل إلى سيدنا من كل ما يدخل بيتنا . . فقلت لنفسى : بقى الذى يكرمه يكسر له ضلعاً ، ويسبنى ويلعن أبويا . . ويقول لى تعال يا ابن (. . .) حتى اشتكيت إلى أمى . . فقالت لأبى : قل للشيخ يخف على الواد شوية .

فسألها : سيدنا بيعمل إيه ؟ فقالت له : بيعمل كذا وكذا وكذا . . فرد أبويا عليها : يبقى عمل بالوصية . . إذن أبويا عندما قال لسيدنا « أنا بأوصيك عليه » . . كانت كلمة « عليه » هذه تعنى الشدة . . بما يدل على أن المربى حين يكون فاضلاً يقسو على من يحب . . إذن هناك فرق بين أوصيك بكذا ، وبين أوصيك على فلان . . ومعناها إياك أن تأخذك به الرأفة حين ينحرف . .

وتقول هذا ابن حبيبي . . ولا ابن مش عارف إيه . . ولما يكون خيريه أكثر . . لازم تكون الشدة أكثر .

وبقيت هذه المسألة في نفسي ، إلى أن كنا في الكلية ، وقال لنا الشيخ يوسف نجاتي بلغة الشعر : « فقسى ليزدجروا » . . فرويت له حكايتي السابقة في كتاب سيدنا . . ولذلك فتربية المحب للمحب فيها قسوة . . ومن هنا ، كان سيدنا الشيخ عبد الرحمن عندما يحدث أى شيء من غيرى كان يمكن أن يغفره له ، ولكن لا يغفره لى . .

وعندما كبرت ، وأخذت الشهادة الابتدائية . . وجدت سيدنا الشيخ جالسا في المسجد يسمعنى . . وأنا أعظ . . وسألنى : « القلم اللى خدته على صدغك عمل إيه ؟ فقلت له : جزاك الله كل خير .

وتذكرت كلمة الفلاحين وقتها : بارك الله فيمن بكانى وبكى علىّ ، ولا بارك الله فيمن أضحككنى وأضحك الناس علىّ . . وأخذناها قاعدة من هنا . . من أيام الطفولة .

وكان سيدنا الشيخ عبد الرحمن حازما ، وشكله له هيبة . . وكان يعجبه كثيرا أن يقول له العمدة تعالى يا سيدنا . ويسأله : أنا سيدك ؟ فيرد العمدة أنت سيدى وسيد أبويا كمان . ولم تأخذه العزة ، وهو عمدة البلد . . يقول أيضا لسيدنا : يا سيدنا . . مما يدل على أن القيم الدينية هي الأصل . . وهي فوق كل شيء . . حتى ولو كان الإنسان عاصيا ، أيضا يحترم مولانا وسيدنا .

ولذلك ، عندما كنت أحاضر في الجامعة أيام صوفى أبو طالب ، كنت أقول : القيم هي القيم ، ولا تقل إنها أمر إضافى . . فالكذاب يحترم الصادق وإن كان لا يحبه . . بحيث لو جاء في شهادة يكون على العين والرأس . .

ولما إذا جاءه كذاب مثله ، يبعده ولا يعتد بشهادته . . إذن هي القيم . . وضربت مثلاً بأعنف غريزة تمر بالإنسان ، وهي الغريزة الجنسية ، فقلت : لو كان هناك ثلاثة أصحاب ، وجاء دور المراهقة واثان منهم يعيش كل منهما على « حل شعره » ، والثالث انقطع عنهما لأن بيئته أو نفسه لا تسمح له بأفعالهما ، وبالطبع قاطعاه وأسمياه جردل أو قفل . . وجاء أحدهما ليخطب فتاة عند الثاني هل يزوجها له أم لا ؟ بالطبع لا . . ولكن لو جاء الثالث ، الذى لم يشترك معهما فى الحياة على حل شعرهما ، وطلب يد الفتاة . . هل يوافق ، أم لا ؟ طبعاً يوافق ، وهو سعيد جداً .

إذن القيم هي القيم . . وحين يتعرض لها الإنسان يحكم بالحق . . وعندما لا يتعرض لها ، لا يهمه شيء .

أذكر أيضاً أن سيدنا كان عنده فلكة يضعها فى الفصل علناً . أى أن آلة العقاب ظاهرة ، ونحن نحفظ القرآن نرقبها . . وأخذت من هذا قاعدة ، وهي أن الإنسان لا يذهب إلى الشر إلا لأنه نسى العقوبة عليه . . أى أن الذى يذهب للسرقة ، لو تذكر أنه سوف يقبض عليه ويسجن ، لما ذهب للسرقة . . لكنه نسى تماماً هذه العقوبة . . وكذلك العمل الصالح ، لا يزهده فيه الإنسان إلا إذا كان لم يستحضر الجنة . . ولو استحضر الجزاء فسوف يتأمل ويستنكر دروسه .

إذن ، التدين كله أن تستحضر مع الطاعة الثواب عليها ، وأن تستحضر مع المعصية العقاب عليها .

أخذنا هذه قاعدة من فلكة سيدنا عبد الرحمن ، وهي موضوعة أمامنا . . لدرجة أن إنساناً عريض المنكبين ، وكان يعمل وكيلاً للشيخ قال لسيدنا : لماذا تحضر هذه الفلحة ؟ الأولاد يخافون منها . . فقال له : أنا أريدهم أن يخافوا . .

وعندما يخافون لا يهتمون . إذن هذه ملاحظة تمثل قضية من قضايا الدين .
وأنا ضُربت كثيراً من فلانة سيدنا . . فمثلاً أيام حكاية عسق ، التي سبق أن
رويتها ، ضُربت ما يقرب من عشرين ضربة . . وبعدها أدبتني وعرفت أنه لا
يصح أن نقرأ القرآن إلا إذا سمعناه أولاً .

وأحداث الطفولة هذه لا يتركها الإنسان . . بل يصطحبها لتنمو مع حياته
حتى نضجه ، وتلتفت تجدها تعطيك ثمرة . . وهذه الثمرة يستطيع من لم
يدركها إن هو استعملها أن تفيده وتقصر عليه تجارب الحياة . . لأن عمر
الإنسان يجب أن يستخدمه في الأمر النافع . . ولا نجعله حقل تجارب . .
وكان فيما مضى عندما يكون تلميذ نابغة أو له عمل سياسي أو قائد
مظاهرات . . يعينه وزيراً ولا يأتون بغيره ممن لا تجارب سياسية لهم . .
لكيلا يجرب في الأمة .

حكايتى مع الشيطان

ويستأنف الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى مذكراته . . بادئا بواقعة شهداها فى صغره ولا ينساها . . لأنها أطلعتة على حقيقة دور الشيطان فى الحياة . . والذى يسعى بينهم بسمومه دون غيرهم من خلق الله . . وهم - فى تعريف الشيخ الشعراوى - الصالحون الذين لا يكف الشيطان عن المحاولة معهم . . بينما لا يقرب من الفاسدين ، لأنه يكون قد اطمأن عليهم ، ولم تعد بهم حاجة إليه .

يقول الإمام الكبير الشعراوى فى روايته لتلك الواقعة :

جاءنا يوما الشيخ عبد العزيز ، وكان رئيسا للوعظ فى ميت غمر . . أطلال الله عمره إن كان حيا . . ورحمه الله إن كان توفاه . . ويومها كنا فى مأتم . . وهذه تكون دائما مناسبة للاجتماع وسماع الوعظ . . وتقدم منه الشيخ أحمد دحروج . . وكان مشهورا فى القرية بأنه أهل علم وليس بعالم . . وأهل العلم ، هم الذين يجمعون كلمة من هنا وكلمة من هناك . ولكن لا يوصف أحدهم بأنه عالم . . تقدم إلى الشيخ عبد العزيز الواعظ وقال له : لدى سؤال . . وكان يفعل هذا كثيرا أمام البلد لكى يظهر بأنه يسأل ، وربما يعجز المسئول عن الإجابة . . ولما قال له الشيخ عبد العزيز : تفضل اسأل . . قال الشيخ أحمد دحروج : هل تستطيع أن تفسر لى لماذا يقتل

المسلمون بعضهم ويحرقون زرع بعضهم ، بينما غيرهم متقدمون وليس لديهم مشاكل ؟

وكان أن توقف الشيخ عبد العزيز بعض الوقت حائراً أمام السؤال . .
ولكن لأن والدي كان يحب العلماء تدخل في الحديث ، وقال للشيخ دحروج :
الكلام ده نتكلم فيه معاً على المصطبة . . لكن الشيخ عبد العزيز ، الذي
عمل له والدي تشريفة . قال لوالدي : طيب لو كتتم الآن على المصطبة . .
بماذا ترد على السؤال ؟

فقال والدي : سوف أقول له : إن الشيطان اطمأن على الفاسدين ، فهم
مأواهم النار . . أما الصالحون فإن الشيطان يظل متنبها إليهم . . محاولاً معهم
ماداموا لم يخضعوا بعد لسيطرته . . أليس الشيطان هو الذي يقول : « لا تعدن
لهم صراطك المستقيم » (الأعراف ١٦) ، إذن الشيطان لا يأتي إلا للصالح . .
أما الفاسق فالشيطان مطمئن عليه .

من هنا يكون المعنى الذي نفيد ، هو أن الإنسان يأخذ الحكمة من أى
وعاء ، مادامت حكمة . . ويجب أن يعرف الإنسان أن الفطرة السليمة مشغولة
بالحكمة في ذاتها . . والذي يفسد عليه هذه الحكمة الهوى . . هو الذي
يلونها . . بدليل أن الإنسان عندما يقبل على شئء بدون هوى . . يكون
الوصول إلى الحق فيه سهلاً . . لأن غرضه هو الوصول إلى الحق . . وليس
غرضه المجادلة .

فمثلاً ، كان في البلد رجل طيب ، اسمه عم منصور . . وكان عنده نصف
فدان يزرعه قمحاً . . ولما انتهى الدريس ، أراد إخراج الزكاة . . رغم أنه
نصف فدان فقط . فأجلس امرأته معه . . يرمى ٩ كيلات من القمح هنا . .
وكيلة هنا . . أى ما يوازي العشر . . وامرأته تعطى الغلابة من هذه العشر ،

وتقول لكل من تعطيه : اقرأ الفاتحة . . لأخى . . اقرأ الفاتحة لفلان . . فجلس عم منصور غاضبا من امرأته . وأخذ منها قمح الزكاة . . وبدأ يعطيه للناس قائلا : خذ يا بنى . . ربنا أعلم . . هذا القمح لمن . . وهكذا يمكن أن نأخذ من الفطرة السليمة ما لا يكفيه كتاب بأكمله .

وأىضا . . أذكر من صور الفطرة السوية التى أدركت معناها منذ الصغر . . أننى بعد أن أصبحت عالما ورأست بعثة الأزهر فى الجزائر . . كنت مسافرا إلى وهران مع محافظها الذى كان يقود سيارته بنفسه . . وقابلنا فى الطريق شيخا يقف حائرا . . فرجع المحافظ إليه بسيارته حيث يقف . . وهممت بفتح باب السيارة الخلفى للشيخ . . لكنه لم يركب . . وأصر على أن يعرف أولا الأجر الذى سوف نأخذه منه قائلا : على كم ؟ ورد محافظ وهران عليه قائلا : لله يا شيخ . . وهنارد الشيخ : غلتها . . غلتها . . أى أنه مادام قد وقف له ليركبه السيارة كعمل خير لله . . فإن أجره من الله سوف يكون غالبا . . وهنا نلمس بجلاء الفطرة السوية . . وهذه الواقعة فسرت لى آية ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (الشعراء : ١٠٩) .

وهكذا كنا كلما مرت بنا أشياء فى طفولتنا . . نقف عندها طويلا . . لنستخرج منها القضايا . . فكانت بلدنا رتنا مثلا بين بحرين . . ونصفها يعمل بالصيد . . وكان عم عبد العزيز خير الله أحد الصيادين . . أسود زبيبة ، دمه شربات . . لانتشبع منه . . وكان يأتى إلينا فى كتاب سيدنا الشيخ عبد الرحمن رحمهما الله جميعا . . وسأله مرة سيدنا : لماذا أتيت يا عم عبد العزيز ؟ فرد قائلا : أريد أن أسمع ولدا من الحلوين دول . . لأعطيه صيد اليوم . . وكنت أعجب كثيرا ، وهو يستمع للقرآن من ولد بعد الآخر . . إلى أن يستحسن قراءة أحدنا . . فيحمل إليه فى داره ما يصيده فى العصر من أسماك . . ويقول

له : هذا رزقك . . وهكذا نرى كيف كان الصياد الذى لا يحفظ القرآن يشجع الصغير الذى يحفظ القرآن . . وعندما عرف أننى ألقى الشعر فى الحفلات ، طلب منى أن أقول فيه بيتين ، فقلت لعم عبد العزيز الصياد :

خير الله فى سمك لونه لمعة الأبنوس

من حسن تقواه أخذ مركزه فى دقادوس

صياد سمك بالشبكة يرميه يقول يارب

حط السمك فى الشبكة من غير سبب يارب

لا طعم فيه ولا معجون ولا سنارة

إلا ضمانك لأرزاق العباد يارب

ويعد أن فرغت من إلقاء الأبيات . . جاءنى عم متولى الحداد ، وكان اسمه على اسم والدى وكان صديقا حميما له . . وسألنى معاتبا : هل تقول شعرا فى عم خير الله الصياد . . ولا تقول شعرا فى صديق أبيك ؟ وكان له ابن اسمه إبراهيم ، فقلت لصديق والدى الحداد :

يا أبا إبراهيم طرقتك تفرح حزين البال

الريشة فى المطرقة والعود فى السندال

تعمل عجب من عجينة نار

يارب صل على داود وعلى المختار

وعندما سمع المراكبية قولى ، احتجوا قائلين : واشمعنى احنا ؟ فقلت لخالى الشيخ أحمد . . اكتب أنت بيدك . . وقلت :

إحنا صبيان نوح
نروح مطرح مـانروح
إن سكت الريح ولا فيش تيار
برضه مـانحـتـار
دا إحنا جـدـعان
وربنا ادانا قـوة أبـدان

وبعد أن كبرنا ودخلنا المدرسة الابتدائية . . عرفنا أبا عبد الرحمن
البياضى . . وكان فلاحا ويعلمنا قراءة الشعر والأدب بالفصحى . . وكانت
فطرته سليمة . . وعندما كان المفتشون يأتون إلى المدرسة . . كانوا يطلبون ابنه
مصطفى البياضى ليقرأ لنا شعر شوقى . . وكان أبى يذهب إلى المحطة يوميا
ويتنظر إلى أن يأتى القطار ويحضر منه الجريدة . . التى كانت كثيرا ما تنشر
قصائد لشوقى . . ويطلب منى أن أحفظ كل قصيدة يجدها ، ويغرينى
بإعطائى ريالاً عن كل قصيدة أحفظها . . ووقتها كان الريال فى العشرينات
حاجة كبيرة قوى .

من هذه القصة ، نأخذ عبرة أن الآباء كانوا زمان يشجعون أبناءهم على
تحصيل الثقافة والعلوم بكل الوسائل المتاحة فى ذلك الوقت .

أزهري .. رغم أنفى !

برغم أن والد فضيلة الشيخ الشعراوي كان كريما معه . . إلى حد أنه اعتاد كما قال في الحلقة السابقة من مذكراته منحه ريالاً بأكمله عن كل قصيدة شعر يحفظها . . فإن الداعية الإسلامى الكبير يعترف فى حلقة اليوم بأسلوب معاملته لوالده وهو صبى . . لكى يهرب من الأزهر ، ندم عليه كثيرا . . بعد أن لقنه والده درسا قاسيا .

قال الإمام الكبير محمد متولى الشعراوي فى استثنائه لمذكراته :

الحق أننى أجهدت والدى كثيرا معى . . كنا وقتها نعيش فى عز كبير . . ثملك الماشية والحدائق . . وننفق عن سعة . . فسألت نفسى : لماذا أترك هذا كله ، وأذهب إلى الكتاب ؟ فكننت كثيرا ما لا أذهب إليه أصلا . . وإذا ذهبت أسارع بالهروب منه . . وكان هذا السلوك يضايق أبى كل الضيق . . لكنه كان يصبر على التحاقى بعد كتاب سيدنا بالابتدائى الأزهرى . .

وفوجئت به يوما ، قرب نهاية الأسبوع ، يقول لى : استعد يا ولد . . ستكشف طبيا يوم السبت .

فسألته : طبى يعنى إيه ؟ . .

فرد : طبى . . يعنى ستكشف على عينيك وباقى جسمك . .

فقلت لوالدى : طيب .

ثم لجأت بعدها لحيلة كانت منتشرة وقتها للهروب من المدرسة . . وضعت كميات كبيرة من الشطة فى عينيّ ودعكتهما بالطماطم . . لكى تتورما لكيلا أقبل بالأزهر . . وذهبت يوم السبت للكشف الطبى مطمئنا . . لكنها كانت أكبر مفاجأة لى . . فقد اكتشفت أنهم يقبلون حتى المكفوفين . . فندمت على ما فعلت وقلت لنفسى : ياواد كنت حتخسر عينيك ، وبرضه حتدخل الأزهر! . .

وعندما عدت للبيت ، قال لى والدى : السبت القادم سوف تمتحن فى القرآن . .

ويومها ، جلست فى لجنة رئيسها سيدنا الشيخ موسى . . كان يطلب منى أن أقرأ . . وأنا ألحبط لكيلا أقبل . . فسألنى سيدنا : أنت ابن متولى ؟ فقلت له نعم . .

فسألنى : والدك معك أم غير موجود؟

فقلت له : معى بالخارج . . فنادى سيدنا عليه : وجاء والدى ، ووقف على رأسى فى اللجنة . . وسأل أبى سيدنا : الواد ده عامل إيه . . ؟ ورد سيدنا : الواد مكار . . حافظ . . لكن عامل أنه مش حافظ . . اسأله إنت . .

فالتفت إلى والدى وقال لى : والله يا ابن الـ (. . .) . ولو كنت مش حافظ حدخلك الأزهر برضه . .
وفعلا دخلت الابتدائى الأزهرى .

وعندما كنا نستعد لبدء الدراسة فى السنة الثالثة . . حدث ما جعلنى أغير تماما من تصرفاتى ، التى كانت تتعب والدى . . فقد أرسلت إليه ليحضر إلى غرفتى فى الزقازيق لنشتري كتب السنة الدراسية الجديدة . . وقبل أن يحضر ، ذهبت إلى محمد زكى ، صاحب مكتبة يتعامل معها كل تلاميذ الأزهر . . ووقع نظرى على عدد من الكتب الكبيرة المتجاورة . . وسألته : ما هذه الكتب؟

فقال : هذه مراجع كبيرة للعلماء . .

فسألته : ألا تريد بيعها؟

فقال طبعاً . .

فقلت له : إن والدى على وشك المجئ من البلد . . وسنأتى إليك . . وعندما يقول لك أحضر كتب سنة ثالثة . . تقدم له هذه الكتب . . وقد كان وكانت دهشة والدى كبيرة . . كان يمسك بالكتاب بعد الآخر ، ويسألنى : الكتب دى مقررة عليكم فى سنة ثالثة ؟!

أقول له : نعم . .

وأحضر كراتين ، وملاها بالكتب ، ونادى على حنطور ووضعها فيه . وعدنا إلى الغرفة التى كانت مستأجرة لى . . وأمضى الليل بأكمله فى تجليدها بورق سولفان . . لكى يحافظ على أغلفة الكتب . . وعندما أصبحت الساعة السابعة صباحاً . . قال لى : إنه سوف يعود إلى البلد بعد أن انتهت مهمته . . وصحبته إلى المحطة ، وقيت معه إلى أن ركب . . ولكن قبل أن يتحرك القطار . . قال لى : اسمع يا أمين

قلت له : نعم . .

وأنا كان اسمى أيضا أمين ، غير اسم محمد . .

قال لى : كتب سنة ثالثة بثلاثين قرشا ونكلة . . وعندما قال لى ذلك ارتبكت وتضايقت . . وأكمل حديثه قائلا : اسمع ، مادمت كذبت على . . أنا بأقولك كده عشان ماتفهمش إن أبوك مغفل . . لما تعرف كده أصعب عليك . . وأنا بأقولك أهه والقطر بيصفر . . روح يا بنى ربنا ينفعك باللى فيها . .

وتحرك القطار . . من يومها أصبحت طالب علم فعلا ، وتوقفت تماما عن حكايات الكتب ، والغرفة التى سرت ، وما إلى ذلك من التصرفات الصببانية . . بالعكس وجدتنى بعدها أقول لوالدى لأول مرة ، كفاية قوى دا كثير فكان يقول لى : ما شاء الله . إيه الحكاية ١٩

فقلت له : أنت عملت فى مقلب كبير ، وأنا من ساعتها التزمت .

وعندما وجدنى أبى أننى تقدمت فى العلم . . وكنت عندما تأتى الإجازة ويتجه كل الأولاد إلى مهن آبائهم . . الصانع . . الصياد . . والتجار . . كنت مع أبى فى الزراعة . . فكان يعز عليه أن أشغل بها عن العلم . .

وفكر أن أتفرغ فقط للعلم . . فلجأ إلى وسيلة ذكية . . أشاع أننى شؤم . . أروى زرعاً فلا ينبت وأدير ساقية فتكسر . . ويقول للأولاد فى الحقل : إذا جاء إلى هنا أبعده لأنه شؤم . . لكنه فعل ذلك عامداً لكيلا أفكر فى غير العلم .

وعن أيام الشقاوة ، مازلت أذكر الكثير . . أيام ثورة ١٩ وقت أن كان الأهالى يلقون السيارات فى الترع . . والسيدات يشتركن فى الثورة . . وأذكر

عم عبد اللطيف الذى كان يقول للناس : السيارات دى ملكنا . . وكانوا يرددون : لانريدها من وش الإنجليز . . وكان معى وقتها من أصدقاء الطفولة الحاج عبد العظيم عبد البارى ، والشيخ أحمد المحلاوى ، والشيخ سيد سعود وكيل الأزهر الآن . . وكنت محتضنه . .

وسألونى : لماذا تهتم بالشيخ سيد سعود ؟

فقلت لهم : أنا أرد الجميل الذى قدمه أجداده لأجدادى . .

وكنا جميعا نشترك فى شقاوة طفولية . . لكنها كانت من نوع بناء . . فأنا مثلا كنت أحب الصلصال ، وهو الطين على جرف التربة . . وكنت أعد منه أشكالاً مختلفة . . وكل أنواع التماثيل . . الجمل . . الحمار . . الكلب . . الجاموسة . . وعندما تجف أطليها بلبن الجميز . . وكان يعطيها بريقا . . وهذا أفضل من الجملة . . وعندما كان المفتشون يحضرون كانوا يرونها . .

وأذكر أيضا أن والدى أحضر لى مرة مطواة من السيد البدوى . كنت أمسك بالغاب وأعد منه شرائح . . وأعمل منها ساقية وقواديس . . وأحضر قطعة وأعلقها فى الساقية وأعد لها بئرا تخرج مياها . كل شىء مثل أى ساقية عادية . . ويأتى الناس ويتفرجون .

هذه كانت شقاوتنا . . ليست مثل شقاوة هذه الأيام . . وقد انتهت منها إلى حكمة علمتها لأولادى . . فقلت لهم : اجعلوا اللعب لعبا مثمرا ، لا لعبا مدمرا . .

كنا صغارا . . ولكننا كنا كبارا . . فكانت المساجد تقيم الذكر كل أسبوع . . ونذهب جميعا إليها ونحضر الذكر مع الكبار ، ونصلى معهم جماعة . . حتى إنفاق المال كنا فيه عقلاء . . فكان الوالد يترك لنا ليمون

الحدائق . . نبيعه لحسابنا . . وأما العنب وغيره ، فله هو . . فكنا نأخذ ثمن
البيع . . ونصرفه فى أشياء مفيدة . . وكانت أحب حاجة إلينا وقتها الدندرة
. . الأيس كريم حاليا . . فكنا نلتف حول عم شعبان الذى يعد الدندرة من
اللبن الحليب فى الصيف . . وكل فلوسنا نصرفها عليها . . وأذكر أننى ذات
مرة أكلت عشرة أطباق . . وكنا نركب بعدها الحنطور ، ونذهب إلى ميت
غمر . . كانت هذه كل أوجه إنفاقنا . . رغم توافر النقود .

تجربتي .. مع الربا !

وبرغم أنه كان ملتزما ومنضبطا مثل كل أبناء جيله . . الذين كانوا في صباهم صغارا . . لكنهم في ذات الوقت كبار في تصرفاتهم . . كما وصفهم في الحلقة السابقة من مذكراته . . بخلاف الكثيرين من أبناء اليوم . . الذين لا يعرفون معنى الالتزام ولا قيمة الانضباط . برغم هذا كله ، كانت لإمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى تقاليد خاصة يحرص عليها قبل بدء كل سنة دراسية جديدة في المعهد الأزهرى .

يعود الشيخ الشعراوى بذاكرته إلى عام ١٩٣٠ . . ويقول :

حدث فى هذا العام أن طلبت من والدى كعادتى قبل بدء الدراسة قفطانين وكاكولتين وحذاءين وعمامتين وشنطة . . ولأن البلد سستها كانت فى أزمة . . ولم يكن والدى يملك وقتها المبلغ الذى يشتري به . . قال لى : يا بنى . . أليس لديك ستة قفاطين ، وست كواكيل وأحذية كثيرة ؟

فقلت له : لكنى أريدها جديدة . .

وخرج والدى وعاد بعد وقت قصير ، ومعه كل ما طلبت . . ولم أكن أعرف من أين جاء بالمبلغ المطلوب . . لكنى عرفت فيما بعد حين تعرضت لموقف عصيب . . وأذكر أنه بعث يومها وأحضر لى أيضا عشرة جنيها . .

وأخذ يعدها ورقة ورقة . . فسألته : إيه الحكاية ؟! عمرك ما عدت الفلوس بالشكل ده . .

ورد والدى : لكى تتذكر ، وترد المبلغ بعد أن تتوظف . .

فقلت له : ربنا لا يحوجك لى . .

ووجدت الرضا يرسم على وجهه . وهو يقول لى : كفاية قوى الدعوة دى يا بنى .

وحدث أن مرضت خلال الدراسة ، وبقيت مريضا ستة أشهر . . ولم أدخل الامتحان . . وحزنت كثيرا . وقلت لوالدى : لابد أن أدخل الدور الثانى . . وفوجئت به يقول لى : لا تزعل . . أنا عارف أنها مش نافعة . .

وسألته : ليه ؟!

فقال : الفلوس التى أخذتها أول السنة كانت بالربا . . والسنة ضاعت وخلاص . لكنى خدت درس يا بنى . . وبإذن الله ، ربنا يبارك فيك السنة الجاية . .

وكان أبى أكثر تأثيرا فى حياتى من أمى . . والشاهد على ذلك أننى كنت جالسا معه ، وقلت له : أريد أن تكلمنى بصراحة . . لماذا كان حرصك على دخولى الأزهر ؟

فقال لى : هل أنت مصر ؟

فقلت له : نعم . .

فحكى أننا كنا فى الشتاء ، وفى إحدى الليالى ، بعد صلاة العشاء ، وجد شخصا ينام إلى جوار المنبر ، فعرف أنه غريب ، فسأله : يا عم أنت لك حد هنا ؟

فرد على والدى :

أنا غريب ..

فاصطحبه والدى لبيت عندنا فى القاعة ، لأن الدنيا كانت بردا .. ولاحظ
أن الغريب كان يحك جلده كثيرا ، وهو يتناول العشاء .. فعرف أن ملابسه
غير نظيفة ، فأحضر له قميصا و جلبابا من ملابسه ، وقال له : ألبس دول ..

ولم يتردد الرجل .. لكنه لم يكد يرتدى القميص حتى نام على الفور إلى
الصباح ، والجلباب فى يده . فعرف والدى أنه مجهد ، فطلب من أمى
غسل ملابسه .. ولما رأت أن تقوم بذلك فى الصباح .. قال لا .. أريد
غسلها الآن .

وبالفعل ، أحضر بنفسه حلة ، وقام بتسخين الماء ، واشترك أبى مع أمى فى
غسل ملابس الغريب .. وقاما بنشرها على أسياخ حديد فى القاعة لأنها دافئة .
وفى صباح اليوم التالى ، قال والدى للضيف الغريب : تناول إفطارك ،
وخذ ملابسك فى لفة ومعها الملابس التى عليك .

وقال إن الغريب سأله : من الذى غسل الملابس ؟

قال له والدى إن والدتى هى التى غسلتها .

فقال الغريب : إن شاء الله سوف ترزق بعالم .

ولم يكن يعرف أنها حامل .. وأخذها أبى على أنها مجرد دعوة رجل
طيب .. ولو أنها لصقت بذهنه لأنه كان يحب العلماء .

ومرة أخرى - كما حكى والدى أيضا - حدث يوم ولدت أن تأخر بعض
الوقت عن صلاة الفجر .. فسأله خاله : ما الذى أخرك يا متولى ؟!

فأجاب والدى : لأنها تلد .

كان رجلا متدينا : يا سلام . . أنا رأيتهما الليلة الماضية فى المنام . . وقد وضعت كتكوتا يقف فوق المنبر ويخطب . . فسألت : من هذا ؟! وقالوا لى ابن متولى الشعراوى . . وعرفت أن ابنك سوف يكون من العلماء .

من هاتين الحكايتين ، أيقن والدى - كما قال لى - أننى سوف أكون علما . . ولهذا كان إصراره على التحاقى بالأزهر .

أما أمى ، فكانت فطرية إلى حد يقرب من السذاجة . . ولكنك لا تراها إلا وهى تعمل أى شىء فى البيت . . وكانت لى عمة اسمها جوهرة ، جميلة جدا . . إلى حد أننى فى يوم من الأيام ذهبت إليها وهى نائمة ، ومعى مسطرة ، وقست سعة عينيها فوجدت أنها أوسع من فمها . . وحدث أن مات زوجها . . وبعد ٣ شهور تقدم إليها عريس ، ووافق أبى فوراً . . وسألته أمى : وأولادها الثلاثة تتركهم لى . . وأتعب وأشقى ؟

فقال لها : دى جميلة قوى وهتخيلنى . . يبقى لازم تتجوز . . ولو خدمت أولادها ، رينا سوف يرسل إليك من يخدم أولادك .

وتزوجت عمتى . . وتركت أولادها الثلاثة . . بنت عمياء . . والثانية جحظاء العينين . . ومحمد . وقال والدى : سبحانه الله . . المكفوفة تعلمت ، والجاحظة بقيت فى البيت تخدم الجميع . . والثالث محمد ، وكان أكبر منى بستين .

وكان والدى عندما يعطى ابن عمتى منابا ، كان يتعمد أن يكون أكبر من منابى . . فقالت له أمى ، وهى غاضبة : بقى أنا أطبخ وأسوى وأعمل ، وبعدين تدى لمحمد أكبر من مناب ابنى أمين (الذى هو أنا) ؟!

فقال لها : أنا عندي حل .

وأصبح يضع مناب محمد مع منابى فى طبق واحد . . ويطلب منا أن نأكل معا .

وبعد أن ذهبت إلى الأزهر فى الزقازيق ، وجدت محمد تحت أمرى يعد لى كتبى ، ويقوم بكى ملابسى . . وترتيب كل ما يخصنى . . فقال أبى لأمى : أرأيت ؟ الآن بعث الله ابنها - يقصد عمتى - عند ابنك خادما . . لأنك خدمت أولادها .

وبعدها ، أراد أبى تزويجى . . وأصر على أن نتزوج أنا وابن عمتى فى ليلة واحدة . . لكيلا يبقى ابن عمتى معى وهو أعزب وأنا متزوج . . وبالفعل تزوجنا معا . . وأنجب بعدها ابن عمتى ولده عبد المنعم ، ومات .

ولأن والدى كان يعشق تربية الأيتام ، أصر على أن الولد يتربى عنده ، وقال لأمى : أرى أن يتزوج ابنى السيد - أى شقيقى - شريفة أرملة محمد . . أى ابن عمتى الذى كان يخدمنى ، وتوفى .

وهدد أبى والدتى بأنها إن لم تنفذ ذلك ، فسوف يتزوجها هو وردت والدتى على أبى وهى تتحدها : تزوجها يا متولى .

وفعلنا تزوجها . . وكان والدى إلى هذا الحد يحافظ على صلة الرحم ويرعاها . . وقد تعلمت منه هذا ، وعملت به طوال حياتى .

وأذكر أيضا من هذه الأيام أننا كنا نقيم موسما سياسيا فى ذكرى سعد . . ونحى الذكرى بحفل كبير . وبعد أن انتهى الحفل الذى ألقى فيه كلمة كأحد شباب القرية . . وعدت إلى بيتنا الذى كان قريبا من الجرن الواسع المقام فيه الصوان . . وجدت أمى تجلس على باب البيت . . فقلت لها : مساء الخير

لكنها لم ترد . . فسألتها : ماذا حدث ؟

فقالت لى : هس ما تتكلمش .

وسألتها متعجبا : أنا زعلتك فى حاجة ؟!

فردت أمى فى ضيق : كل الناس قالت كلامها فى أمان الله . . وأنت كل ما تيجى تتكلم ، الناس تقول لك : عيد عيد . . مش تبقى تحفظ كويس يا بنى ؟!

وأخذنى أبى على جانب ، وقال لى : اصبر يا بنى . . ألم أقل لك إن والدتك فهمها على قدر حالها ؟! ففى حين كان الناس يقولون لك أعد لاستحسانهم كلامك . . فهمت هى أنهم يقولون لك عيد أى راجع نفسك . وصحح كلامك .

والغريب أن مصطفى النحاس كان قد سمع هذه الواقعة فقال لقريب لى اسمه مصطفى نصرت : أنا عايز أشوف أم الشعراوى .

وعندما ذهبت إليه ، سألتها : الواد لسه ما بيعفظش يا حاجة ؟ فردت عليه قائلة : لا . . أنا فهمتها ، فهمتها !!

فى جوار سعد زغلول

فى الحلقة الثامنة من مذكرات إمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى يستعيد الأيام الغالية التى عاشتها قريته « دقادوس » إلى جوار قرية زعيم الأمة سعد زغلول ، التى كانت تحمل اسم « مسجد وصيف » ، والتى كان بطل ثورة ١٩ يقيم فيها فترات طوالا . . ترسخت خلالها أوامر الصلة والصداقة مع جيرانه ، ومن بينهم الشيخ الشعراوى .

يروى إمام الدعاة ذكرياته مع هذه الحقبة العزيزة من تاريخ مصر الوطنى قائلا :

كانت قريتنا تمتاز بسمتين . . أولاهما أنها تشترك مع كل بقعة على أرض مصر فى تلك الحمى الوطنية التى فجرتها ثورة سنة ١٩ . . والثانية ، أنها كانت تجاور قرية « مسجد وصيف » بلد زعيم الثورة سعد زغلول . . والذى كان لا يمر علينا اليوم إلا ونذهب إليه لزيارته .

وأضيف إلى ذلك واقعة أخرى خاصة ، فقد حدث أن وقع سعد زغلول من فوق الحمار ، وهو يحمله متجولا فى القرية ، وكسرت ساقه . . وفى الحال ، استدعوا له الأطباء . . من القاهرة طبعا . . وتصادف أن كان فى قريتنا أسرة تعرف باسم « المجبراتية » وكانت شهرتها واسعة - حتى النساء منها - فى أعمال تجبير الكسور . . وشارك كبيرها الشيخ سيدى أحمد أطباء القاهرة فى

علاج الزعيم . . وسجلت لنا هذه المكرمة فى علاقتنا معه . . وأصبحت عادة متبعة للآباء أن يصحبوا أبناءهم معهم ليروا سعد باشا فى قريته . فكنت أواظب على زيارته فى صحبة والدى وعمى طوال فترة علاجه .

وأذكر من هذه الأيام . . أنه حدث أن حضر أحد الشعراء ، وكان اسمه الجيهارى ، وأراد أن يرى الحمار الذى أسقط من فوق ظهره سعد باشا . . فأحضروا له الحمار . . وكنت يومها فى قرية الزعيم ، وتساءلنا : ما الذى سوف يفعله هذا الشاعر بالحمار ؟ هل سيركبه أم سيضربه ؟ وفوجئنا عندما أوقفوا الحمار أمامه ينشد فيه شعرا قائلا :

| | |
|-----------------------------|-------------------------|
| حمار الزعيم . . زعيم الحمير | على عرش ملك الحمير أمير |
| أقام الحمير له حفلة | وأعطوه قفّة من شعير |
| فإذا كان للتاكسى صفارة | فإن النهيق مكان الصفير |

وبالطبع ، انطلقنا جميعا نحن الصغار فى الضحك .

والحق أنه من مزيج هذا المواقف ، ومن الحكمة الفطرية الصافية التى أخذناها من أبناء القرية . . مع ما أفدناه من دراستنا بالأزهر فيما بعد . . تكونت لدينا من ذلك كله خميرة عجنت فى عقولنا ، وأنضجت لنا ثقافات واسعة خدمتنا كثيرا فى حياتنا .

ولأننى كنت أشتهر بصداقتى مع الأكبر منى سنا . . بل ومن هم فى عمر أبى وأكبر . . كان أقرانى الصغار يغضبون منى ، لأننى أتركهم . . وكنت أقول لهم : لماذا أجلس معكم ؟ . .

فيتساءلون : ما الذى تفيده من الكبار ؟

وأذكر أنني رويت لهم واقعة تعبر بجلاء عن مدى الإفادة من صحبة الكبار . . قلت لأقراني : إنني ذهبت يوما مع والدي لزيارة عمدة قرية كفر أبو لقمان ، لأنه كان مريضا . . ولما دخلنا عليه ، قال لأبي : أهلا أبا عبد الحافظ ، لقد حضرت في وقتك . أرجو أن تنادي على ابني محمود .

فنادى أبي عليه . . وقال له العمدة : يا بني أنا في مرض الموت . . وبكى ابنه ، فقال له أبوه العمدة : إسمع يا بني كلامي ، واترك البكاء الآن . . العمدية في بيتنا من مائتي سنة ، وأنا أمنيته قبل أن أموت التأكد من أنك لن تتخلى عنها . . لا بد أن تصبح عمدة ، لكنني أريد أن أعرف أولا . . هل ستصلح عمدة أم لا ؟ افرض أنك جالس على المصطبة اللي بأجلس عليها قدام الدار . . وجالك اثنين مختلفين . . واحد منهم طيب ، والثاني نحس ، تعمل إيه ؟ فرد عليه ابنه : والله يا أبي . . أحط الحق على الطيب ، لحد ما أطوى النحس !

وضحك أبوه ، وقال له : كويس . طيب افرض أن الاثنين كانوا نحس ؟ !

فرد ابنه : أحط الحق على أنا وأشيله لحد ما أطويهم الاثنين .

فقال له أبوه : والله كويس . . طيب افرض الاثنين طيبين ؟

فقال له : يا أبي لو الاثنين كده مايجوليش .

بعد أن انتهيت من هذه الرواية لأقراني ، قلت لهم : لم يكن ممكنا لو لم أصحب والدي في هذه الزيارة أن أتعلم هذه الحكمة الفطرية من العمدة وابنه .

ونصيحتي هنا للشباب أن يحرصوا دائما على الإفادة من تجارب من هم

أكبر منهم سنا . من خلال صداقتهم التى يعرض بها الشباب من أعمارهم . .
لأن العمر لا يملكه أحد طولا ولا قصرا . . هذا لله وحده . . وإنما يستطيع
الإنسان أن يعرضه . . وربما يكون عرضه أكبر من طوله . . وتعريض العمر
يكون بتطبيق تجارب الآخرين . . وأيضا يمكن أن يوسع عمره بأن ينشر على
مدى واسع علاقاته مع الآخرين . . وهناك بعد ثالث للعمر . . بأن تعطيه
عمقا . فبعد أن كان مسطحا يصبح له حجم . . بمعنى أن يترك العمر بعد أن
ينتهى دروسا للآخرين .

وهذه صفات العمر للعقلاء الذين نقرأ لهم ونفيد منهم . ولهذا كان أبى
يسر للغاية لمصاحبتى للكبار . . لأنه كان يجد شبابى محروسا بشيخوخة
الكبار . . فقد كنت أخجل وأنا جالس معهم أن أقدم على تصرف صغير أو
كلمة سيئة . . وهذا جعلنى أستقبل الحياة بمنتهى الجدية . . إلى حد أن فترة
المراهقة مرت بى ولم أدر بها . . لأننى كنت دائما كبيرا مع الكبار . . وحتى
عندما كنت أعترف على الشباب فى مختلف المهن والحرف . كان يهمنى أن
أكتسب منهم لنفسى أكبر حصيلة من المعلومات . . ولا أجاريهم بعد ذلك فى
أى تصرف من تصرفات الشباب فى سن المراهقة .

ومن أطرف ما أذكره من هذه الأيام ، أننى كنت أتعامل مع حائك ملابس
كان من قبل صبيا لحائك ملابس أبى . . ولكن كان مقصده كويس جدا . .
وكان أكبر منى . . ويتمتع بذلكاء فطرى . . وحدث أن طلبت منه تفصيل ست
جلاليب . . وعندما جاء بها ، وارتديت إحداها ، وجدت أنه أخطأ فى
التفصيل ، واختصر من الطول حوالى عشرة سنتيمترات . . ولما لمح فى نظرتى
أننى على وشك الانفجار من الضيق . . وأراد أن ينهى المسألة . . قال لى :
اجلس أنت وسوف اشرح لك كل شىء .

فجلست فوق الكنية . . وبدأ يعدل من وضع الجلباب على جسمى إلى أن
غطى تماما الساقين وقال لى : أرايت ؟! أنا فصلت الجلباب للجلوس .
وهكذا ، أنهى بذكاء شديد المسألة وانتزع منى الابتسامة والضحك . .
وقلت له : خلاص المسألة انتهت . . أرجو أن تأخذ الجلابيب لمن تكون على
مقاسه ؟

ومن هذه الواقعة ، تعلمت أننى عندما أخطئ عن غير قصد . . يمكننى أن
أفلت من المأزق لو فكرت واستخدمت الذكاء وروح المرح .

عرفونى .. شاعرا !

ومن ذكرياته التى يعتز بها كل الاعتزاز أيام أن كان يحرص على صحبة والده فى زيارته المتكررة لزعيم الأمة سعد باشا فى قريته المجاورة « مسجد وصيف » . . ومن الدروس الغالية التى أفادها من حرصه على صحبة الكبار فى سن والده ، وربما أكبر منه ، كما روى فى الحلقة السابقة من مذكراته . يواصل اليوم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حكاياته التى لا ينساها فى أيام الصبا . . وبالأخص ما يتعلق منها مع موهبته فى إقراض الشعر .

يروى إمام الدعاة الشيخ الشعراوى وقائع متفرقة ، الرابط بينها أبيات من الشعر طلبت منه وقالها فى مناسبات متنوعة ، وخرج من كل مناسبة كما هى عادته بدرس مستفاد . . يقول :

لأننى كنت فى خلقى مع الناس لا أمكن أحدا من أعدائى من النيل منى أبدا . . وإلى الآن مازلت على هذه الوتيرة . . فقد حدث أيام الجماعة الأدبية التى كنت رأسها حوالى عام ١٩٢٨ . . والتى كانت تضم معى أصدقاء العمر : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - أطال الله عمره - والمرحوم محمد فهمى عبد اللطيف ، وكامل أبو العينين ، وعبد الرحمن عثمان رحمه الله . . حدث أن كانوا على صلة صداقة مع شاعر مشهور وقتها بطول اللسان والافتراء على أى إنسان ، اسمه عبد الحميد الديب ، صاحب قصيدة « دع

الشكوى وهات الكأس واسكر» . . والذي لم يسلم أحد من لسانه . . والذي كان يعيش على هجاء خلق الله إلى أن ينحوه مالا .

وجاءت ذات ليلة سيرتي أمامه . . وقال له الأصدقاء أعضاء الجماعة الأدبية عن كل ما أقرضته من قصائد شعرية . . فرد وقال : الشيخ الشعراوي شاعر كويس ولكن لا يصح أن يوصف بأنه شاعر . .

ولما سأله : لماذا ؟ . . قال : إن المفترض في شعر الشاعر أن يكون مجودا في كل غرض . . وهو لم يقل شعرا في غرضين بالذات .

ولما حكوا لي عن هذا الذي قاله الشاعر عبد الحميد الديب . . قلت لهم : أما إحدى الدعويين وهي أنني لم أقل شعرا في الغزل . . فأرجو أن تبلغوه بأنني أقرضت الشعر في الغزل أيضا . . لكنه غزل متورع . . وانقلوا إليه الأبيات عني . . والتي قلت فيها :

من لم يحركه الجمال فناقص تكوينه

وسوى خلق الله من يهوى ويسمح دينه

سبحان من خلق الجمال والانهازام لسطوته

ولهذا يأمرنا بغض الطرف عنه لرحمته

من شاء يطلبه فلا إلا بطهر شريعته

وبذا يدوم لنا التمتع ها هنا وبجنته

وأما عن الهجاء ، فقلت لأصدقائي : إنني لا أجدر موضوعا أتناوله إلا أن أهجو عبد الحميد الديب نفسه . . ولن أشهر به . . ولكن فليات إلينا . . ويجلس معنا . . وأقول له إنني سوف أهجو بكذا وكذا . . ثم أخبره بعد ذلك أن يعلن هجائي له أو لا يعلنه .

وقد تحداني ، وقدم إلى منزلي بباب الخلق ، وسألني : ما الذي سوف
تقوله في عبد الحميد الديب يا بن الشعراوى ؟

فقلت له : والله لن أقول شعري في هجائك لأحد إلى أن تقوله أنت . .
يعرف الناس أنه هجاء قوى وشديد ومقلع . . ولهذا فأنا أقطع بأنك لن تكرر
على مسامع الناس هجائي لك .

وبالفعل ، ما سمعه عبد الحميد الديب مني في هجائه لم يستطع - كما
توقعت - أن يكرره على مسامع أحد . . ولذلك ، كنت الوحيد من شلة الأدباء
الذي سلم من لسانه بعدها . . لأنه خاف مني ، وعلم قوتي في شعر الهجاء
أيضا .

ومن هنا ، ترسخ يقيني بأن التصدي للبطش والقوة لا يكون إلا بامتلاك
نفس السلاح . . سلاح القوة ، ولكن بغير بطش .

وأذكر بعدها عندما جمعني المعهد الأزهرى مع شلة الأصدقاء . . أن طبع
لى محمد فهمي عبد اللطيف قصيدة في الإسراء والمعراج من حوالى ٦٠٠
بيت ، وقام بنشرها في عام ١٩٣٢ . . وكنا في كل مناسبة نعقد ندوات ونلقى
بالأشعار ، وكان هذا مبعث نهضة أدبية واسعة في زماننا . . كانت معنا لا
ينضب لغذاء القلب والعقل والروح لا يفرغ أبدا .

وأذكر من هذه الأيام أن كنا نحى في قريتنا ذكرى الوفاة الأولى لرحيل
حبيب الشعب سعد زغلول . . وطلب مني خالى أن أقرض أبياتا في تأبين
الزعيم . . فقلت على ما أذكر :

عام مضى وكأنه أعوام

يا ليت ما كان هذا العام

ويومها ، قال لى خالى ويسمع من سمعونى : يا أمين .. قلت
وأوجزت .. وعبرت .. عما يجيش فى صدور الخلق ..

وحرصت من يومها على أن أنجيه فى قصائدى إلى المعنى المباشر من أقصر
طريق .. بغير أن أحوم حوله طويلا .. لأن هذا يكون الأقرب فى الوصول
إلى أعماق القلوب .. خاصة إذا ما عبرت الكلمات ببساطة ووضوح فى غير
نقص .. وربما هذا مع مخاطبتى للعقل هو ما يغلب على أحاديثى الآن
للناس .

وأىضا ، لا أنسى من هذا الزمن .. يوم زارنا فى قريتنا - التى كان يقطنها
معنا إخوان لنا مسيحيون نصران - المنصورة فى كنيسة العذراء .. وتصادف أن
توافقت هذه الزيارة مع حلول العيد الكبير .. فطلب منى خالى تحية بالشعر
لهذه المناسبة فقلت :

اليوم حل بأرضنا عيدان

عيد لنا وزيارة النصران

وعلى هذا النحو ، كانت تتأصل فى القرية المصرية روابط المحبة والأخوة
العميقة بين عنصرى الأمة ، وتربينا على هذا الحب وتلك الأخوة منذ
صغرنا .. وكان الكبار من آبائنا وأخواننا وأعمامنا يغرسون فىنا هذه الروح
السمحة التى اقترنت مع الحمى الوطنية التى اجتاحت الجميع .. مسلما
ومسيحيا بغير تفرقة .. والتى شارك إخواننا المسيحيون بكل الإخلاص للوطن
فى جميع ما أنجبتته من أحداث غالية فى تاريخنا الوطنى .. ولعل الذين
يسعون لإحداث الفركة وإيقاع الفتنة يعون ذلك .

ولعلى أسوق هنا من أحداث هذه الفترة مظاهرة الجامعة ، وحكاية كوبرى

عباس الذى فتح على الطلاب من عنصرى الأمة ، وألقوا بأنفسهم فى مياه النيل ، شاهد الوطنية الخالد لأبناء مصر . . فقد حدث أن أرادت الجامعة إقامة حفل تأبين لشهداء الحادث ، ولكن الحكومة رفضت . . فاتفق إبراهيم نور الدين رئيس لجنة الوفد بالزقازيق مع محمود ثابت رئيس الجامعة المصرية على أن تقام حفلة التأبين فى أى مدينة بالأقاليم . . ولا يهم أن تقام بالقاهرة . . ولكن لأن الحكومة كان واضحا إصرارها على الرفض لأى حفل تأبين ، فكان لابد من التحايل على الموقف .

وكان بطل هذا التحايل عضو لجنة الوفد بالزقازيق ، حمدى المرغاوى ، الذى ادعى وفاة جدته ، وأخذت النساء تبكى وتصرخ . . وفى المساء أقام سرادقا للعزاء ، وتجمع فيه المئات وظنت الحكومة لأول وهلة أنه حقا عزاء . . ولكن بعد توافد الأعداد الكبيرة بعد ذلك ، فطنت لحقيقة الأمر . . بعد أن فلت زمام الموقف . وكان أى تصد للجماهير يعنى الاصطدام بها . . فتركت الحكومة اللعبة تمر على ضيق منها . . ولكنها تدخلت فى مدة الكلمات التى تلقى ، لكيلا تزيد للشخص الواحد على خمس دقائق .

وفى كلمتى بصفتى رئيس اتحاد الطلبة ، قلت : شباب مات لتحيأ أمته ، وقبر لتشر رايته ، وقدم روحه للتحف والمكان قربانا لحرته ونهر الاستقلال .

ولأول مرة يصفق الجمهور فى حفل تأبين . . وتنازل لى أصحاب الكلمة من بعدى عن المدد المخصصة لهم . . لكى ألقى قصيدتى التى أعدتها لتأبين الشهداء البررة والتى قلت فى مطلعها :

نداء يا بنى وطنى نداء

دم الشهداء يذكره الشباب

الخروج .. من المأزق

تواصل حلقة اليوم من مذكرات إمام الدعاة الشيخ متولى الشعراوى ، مع ما انتهى إليه فى حلقة الجمعة الماضية من تلاحم عنصرى الأمة فى ثورة الشعب بزعامة سعد زغلول سنة ١٩١٩ . . يروى فى هذه السطور مواقف لا ينساها شارك من خلالها فى الحركة الوطنية التى امتزجت فيها ثورة الأزهر مع ثورة سنة ١٩١٩ .

يقول فضيلة الإمام محمد متولى الشعراوى :

من أغلى ذكرياتى مع ثورة الأزهر التى تفجرت بسبب تصريح هور سنة ١٩٣٤ ، أننى كنت الوحيد من إخوانى المشاركين فيها الذى ظل طليقا لفترة طويلة ، بغير أن أتعرض لما تعرض له زملائى من القبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة .

فقد كان رجال الحكومة يأتون إلى اجتماعاتنا ، ويندسون فى الزحام ، وينادون يا شيخ شعراوى . . فيلتفت أحدها لمصدر النداء تلقائيا . . فيسارعون إلى الإمساك به . . بينما أنا ألزم الصمت ولا أرد . . وبهذه الوسيلة أفلت منهم ، وهم يكررون محاولة الإمساك بى .

وبقيت والحمد لله ناجيا من قبضتهم ، إلى أن حدث ما لم يكن ممكنا أن

أظل بعيدا عن متناول يدهم . . فقد أخذوا أبى وأخى من القرية . . وأبلغنى
الأهل فى الزقازيق بما جرى . . وتكاد كلمة أبى الحزينة ترن فى سمعى إلى
الآن حينما قال بعد أن أفرجوا عنه وأمسكوا بى : الله يرحمك . . وأنت الذى
فعلتها بناء على رغبتك . . ومادامت هذه رغبتك تحمل يا بنى .

وأذكر أنه كان بين الذين شهدوا الإمساك بى صحفى اسمه محمد عبد
السلام . . ناديت عليه ، وقلت له : هات ورقة واكتب هذه القصيدة عنى . .
وكان مطلعها :

سـر بى إلى السجن واذهب بى إلى الهون
فلإننى لمصيرى غير محزون
فما اعتقلت بجرم نال من شرفى
لكننى بالمعانى جد مفتون
فشورة الحق الإجماع زينتها
وثورة الحق لا ترضى بمظلوم
يسير مثلى لبـيت جاء ساكنه
كبائر الإثم بالأوغاد مشحون
فهل تسوى به نفس لها أمل
شتان ما بين فتان ومفتون
الصبـر يا والدى عهدى به رجلا
له فى الخطب رأى غير مأفون
وطب شقيقى فؤادا كفاك فخرا
قد كنت بالسجن لكن ليس مسجون

وكتب محمد عبد السلام القصيدة بأكملها ونشرها في جريدة الجهاد ، وكانت من مستندات الاتهام ضدى . . وأخذوني بها إلى مأمور الزقازيق ، وكان اسمه وجدى ماهر . . ولما رآنى ، قال لى : والله وقعت يا شيخ شعراوى .

فقلت له : بيدى لا بيد عمرو . . أنا الى جيت بنفسى .
فاصطحبنى إلى وكيل النيابة ، وقال له : أهه وقع أهوه . .
فقلت لوكيل النيابة : السيد المأمور ، مهمته أن يحضرنى لك ، وقد فعل . . والآن ، لابد أن يخرج وإلا فلن أتكلم .
فقال المأمور محتجا : شوف يا حضرة الوكيل ، مصيبة البوليس أنه يعمل فى أمة جاهلة .

وعاجلته برد عنيف قائلا : لا والله . . الحقيقة أنها مصيبة الأمة التى يعمل فيها بوليس جاهل . . يسوى بينا وبين اللصوص .
ومن غضب وكيل النيابة من تراشقى ، أنا والمأمور بالكلمات . . بدأ فى الحال تحقيقه معى . . وانتهى الأمر إلى الحكم بحبسى شهرا .

ولكن عندما جاء مصطفى باشا النحاس إلى الحكم سنة ١٩٣٦ ، ألغى كل هذه الأحكام . . وحرق القضايا فى ميدان العتبة . . وأعادنى الشيخ المراغى ، وكان قد أصبح شيخا للأزهر ، إلى دراستى بالمعهد ، وأقمنا له حفل التكريم المشهور بهذه المناسبة .

بعدها ، انخرطت فى دوامة الأحزاب . . وكان الصراع شديدا وقتها بين الوفد والإخوان والأحرار والدستوريين والسعديين ومصر الفتاة . . حدث عندما دخل مصطفى باشا الانتخابات ونجح فيها .

مع عبد الناصروشوقى

فى مواصلة إمام الدعاة فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى لذكراته ، يتبع منهجا متفردا . . فلا يمضى كما هو متبع فى مذكرات غيره من أهل القمة فى تسلسل الأحداث عبر مراحل زمنية متتابعة ، تسلم الواحدة منها حديث الذكريات إلى المرحلة التالية . . لكنه يترك نفسه حرا لما يطرأ على ذهنه من أحداث ومواقف أى مرحلة عمرية ، بحيث ينتقل كالفراشة التى تحط فوق الزهور ، وتشتتم رائحة الأيام التى خلت . . وتنثف عبيرها ودروسها فى حديث الذكريات . . ومن خلال هذا المنهج المنطلق ، فإنه قد يسرد أحداثا من مرحلة عمرية متقدمة ، ثم يعود فى حلقة تالية إلى أحداث من مرحلة عمرية سابقة . . وعندما تكتمل مذكراته يكون إمام الدعاة قد غطى جميع مراحل عمره المديد بإذن الله فى خدمة رسالة الإسلام .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى :

من الأحداث التى مرت بى ، وأعتز بها والحمد لله . . أنه عندما رفض الشيخ المراغى ، شيخ الأزهر ، التعاون مع الوفد وتحقيق مطالبنا ، كتبنا عريضة مطولة ورفعناها للملك . . وفوجئنا بعدها بنقلنا نحن السبعين عالما الذين وقعوا على العريضة إلى أماكن مختلفة . . وكان نصيبى أن أنقل إلى الإسكندرية ، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥ . . وحدث بعد فترة وجيزة ، أن رأى

كل الإخوان ضرورة أن نذهب إلى الأزهر لنسأل عن حيثيات نقلنا في نصف السنة الدراسية .

وتوجهنا إلى مكتب الشيخ المراغى . . لكنه لم يكن قد وصل إلى مكتبه من حلوان حيث يسكن . . وكان الموجود وقتها هو الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر . . فدخلنا إليه ، وقلنا له : نحن نريد فقط ياسيدنا الشيخ أن نعرف : لماذا نقلنا ؟ بأى حيثيات نقلنا ، وبالدات فى نصف السنة ؟ وكان أن نظر إلينا شذرا ، وقال لنا : بقى يعنى رئيس المصلحة ليس له صلاحية فى أن ينقل من يريد نقله من مرءوسيه فى أى وقت ؟

وفى لهجة أمرة ، قال لنا : كل واحد فيكم يذهب فورا إلى المكان الذى نقل إليه ، ولن نرجع أبدا فى قرارنا .

وأنا لم يكن قد مر على تعيينى سنة . فقلت لزملائى : بنا نعود يامشايع إلى معاهدنا .

ونظرت إلى وكيل الأزهر ، وقلت له : والله لن تذهبوا بنا إلى مكان ليس به الله .

ولحظتها ، خلع الرجل نظارته . ولم يتركنا نخرج من مكتبه . إلا بعد أن قال لنا : اخفوا ، ارجعوا إلى معاهدكم قبل النقل . روحوا وروحوا .

وانطلقنا فرحين ، فهمس فى أذنى زميلى الشيخ عبد الله ، متسائلا : يا شيخ شعراوى أنت جيت الكلمة دى مين ؟

فقلت له : والله الكلمة هى اللى جت على لسانى .

وعندما أصبح الشيخ عبد الرحمن حسن شيخا للأزهر ، وأنا مديرا للأزهر . . جاءوا بصورة لجمال عبد الناصر ، وهو يصلى ، ووضعوها فى

مكتبه . . ووجدوا أن هذا يكون مناسباً . . وقال لى شيخ الأزهر : ماتكتب
لنا كلمتين نضعهما تحت الصورة الواقعة دى .

فسألته . وكان يحبنى جدا : هل هذا توجيه أم تطوع بالنفاق ؟
فضحك . . وقلت له : طيب أنا حاكتب كلمتين . . لكن بشرط أنك تكتب
ورايأ بخط إيديك .

والتقط ورقة ، وقال لى : موافق . . أنا حاكتب .

فقلت له : إذن أكتب بخط واضح .

والله يرحمه كان من أبناء الأكابر . . وأمليته :

غدا تتوارى فى سراديب من مضى

ويمضى الذى يأتى لسردابكم حتما

ولن يقف الدولاب والله دائم

فليستكم لما . . تذكرتموا لما

وفوجئت بالشيخ حسن يقول لى : أبدا . . لا أقدر على كتابة هذا أبدا . .

ولا أنسى يوم ما أعرب جمال سالم عن رغبته لزيارة الأزهر . . وأراد أن
يعقد اجتماعا لمجمع بحوث العلماء ، ليتخذوا قرار تحديد النسل . . فقال لى
شيخ الأزهر وقتها : أنا مريض من الآن ولن أحضر .

كان يمقت جدا كلمتى شيوعية واشتراكية . . وقال لى : أنت مقرر المجمع ،
اعرف شغلك .

وجاء يوم الثلاثاء المحدد لموعد الزيارة . . وانتظر جمال سالم طويلا داخل

قاعة اجتماع مجمع بحوث العلماء . . وكل نصف ساعة ، يحضر عالم واحد . . فغضب جمال سالم ، وكان سليلط اللسان ، وقال : إيه العلماء دول ؟!

فقلت له يا سيادة عضو مجلس الثورة : أنت جئت في سيارة خاصة ، وأمامك مورتوسيكلات مصفحة ، ودول غلاية وجايين متشعبطين في المواصلات . وعلى كل حال ، انتظر بعض الوقت . الساعة لم تزل العاشرة والنصف صباحا . . وأنا على أى حال أحمد الله .

فقال جمال سالم : العلماء طبعاً لابد أن يحمداوا الله .

فقلت له : إئننى أحمده لأمر مختلف .

فسألنى : على ماذا ؟

فقلت له : لأن أعضاء مجمع بحوث العلماء لم يجتمعوا من قبل ، ليقرأوا تحديد النسل قبل أن تحمل أم جمال عبد الناصر فيه . . وإلا كانت الدنيا تخسر خسارة كبيرة جداً .

فسكت جمال سالم فترة ، ثم قال : لما ييجوا العلماء ، ابقوا اعملوا قرار واحضروا به إلينا .

ولم يحضر بقية العلماء ، ولم يعقد الاجتماع .

وأما أن الشعراء أحمد شوقي فقد التقيت به مرة واحدة . وكنت غاضبا ، لأننى كنت أحبه ، وفوجئت يوما بقصيدة له نشرتها الصحف يوم العيد يقول فيها :

رمضان ولى هاتها ياساقى

مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وكأنه امتنع فقط فى رمضان عن الخمر . . وكان صعبا جدا بالنسبة لى أن
الذى قال هذا فى الخمر هو شوقى ، الذى قال قصائده العظيمة فى المناسبات
الدينية الجليلة .

فقلت للشيخ مصطفى البياضى الذى عرفنا شوقى عن طريقه : لابد أن
أذهب لمقابلة هذا الرجل .

وكنت فى سن الشباب . . وجئنا إلى القاهرة . وكان الشيخ مصطفى
يعرف شخصا يعلم دائما بالمكان الذى يوجد فيه شوقى . . وقال لنا إنه موجود
فى عش البلبل عند الهرم . . واصطحبنا إليه . . وقال لشوقى : هؤلاء شبان
من أشد المعجبين بك ، ويحفظون شعرك كله ، ويأملون فقط فى رؤيتك .
فسألنى شوقى : ما الذى تحفظه عنى ؟

فعددت قصائد عديدة له . . فسألنى : ومن الذى دفعك إلى هذا ؟
فقلت له : إن والدى كان يمنحنى رايالا عن كل قصيدة أحفظها لك .
فابتسم ، وقال لى : مرحبا بك .

وقلت له : إن لنا عتابا عليك .

فسألنى : فيم العتاب ؟

فقلت له : ما هى حكاية رمضان ولى هاتها ياساقى ؟

فضحك كثيرا ، وقال : أستم حافظين للقرآن الكريم ؟

فقلنا : بالطبع نحفظه

فقال : ألا تعرفون الآية التى تقول : ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون *
وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ (الشعراء : ٢٢٥ ، ٢٢٦) ، وكان ردا أفحمنا .
وبعدها بستة أشهر ، مات رحمه الله .

مولد العذراء .. والوشم !

فى هذه الحلقة من مذكرات إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، يعود إلى الاحتفالات والتقاليد الشعبية القديمة ، التى كانت تروج بها حياة القرية المصرية ، والتى نشأ الشيخ الشعراوى مع أقرانه فى أحضانها . وتركت بصمات على سيرهم الذاتية جميعهم .

يقول فضيلته :

من هذا الزمن ، أذكر أن من أهم الاحتفالات الدينية ، التى كانت تجمع آباء وأبناء قريتنا دقادوس « مولد العذراء » ، الذى كان يقام فى الأسبوع الثالث من أغسطس . . وكان يقال إنها مرت بالمسيح فى قريتنا ، فأقيمت لها كنيسة عندنا . . وكنا نعتاد فى الاحتفال بهذا المولد أن تأتى إليه كل الطوائف . . لأنه نان من الموالد الكبيرة جدا .

وكان من بين الذين يحضرون ، هؤلاء الذين يدقون الوشم . . وسبب هذا أن النيل فى بلدنا كان واسعا ، ويغرق فيه أناس كثيرون . . فوجدوا أن أنسب وسيلة لمعرفة الغرقى ، أن يدقوا وشما على أيديهم . . وكان « مولد العذراء » أفضل وقت لدق الوشم ، لأن أعدادا هائلة من أبناء دقادوس والقرى المجاورة كانت تتجمع فيه .

وحدث أن ذهبت مع أصدقائي من شباب القرية إلى المولد ، فوجدنا الرجل الذى يدق الوشم تحت الجميزة يخيرنا بين ما نريد دقه بالوشم . . صورة بنت حلوة ، وحاجات كثيرة غير ذلك . . والتفطنا حول رجل يدق الوشم بقرش . . وكان فى صحبتى اثنان من أصدقائي ، دق لهما الوشم . . ثم جاء دورى لكى أدق صورة طيور .

ففوجئت بيد تشدنى فجأة ، وكان والدى . وكنت على وشك دق الوشم . . ضربنى وصحبنى إلى البيت . . وقال لى : لا تقدم يا بنى على شيء إلا بعد أن تشاور من يحبك . . والذين معك عيال مثلك .

وسألنى : هل ستدرس فى الأزهر ، وتحفظ القرآن ويقى لك طيرتين هنا ؟ وبعد أن كبرت وأصبحت عالما . . كان يذكرنى ، ويقول لى معاتباً : تصور أن تكون عالما أزهرياً ، كما أنت الآن ، وعلى جانبي جبينك طيرتين هنا ؟

ووقتها ، رأيت غيرى ممن دقوا الوشم ، وأرادوا إزالته بعد أن كبروا ، ولكن ذلك كان مستحيلاً إلا باستخدام الأزميل . فقلت لنفسى : ياسلام على الأقدار . . لو لم يحضر والدى ، وأنا على وشك دق الوشم . . لكنت منهم .

ومن يومها ، ترسخ إيمانى ألا يناقش العبد قدره ، فقد يراه ضاراً به ، أو يمنع عنه شيئاً طيباً ، كما كنت أرى فى صغرى وقت أن جاء أبى إلى تحت الجميزة على غير موعد . . بينما كان القدر يخبى لى ما هو أفضل ألف مرة . بأن ينقلنى فى كبرى من وصمة الوشم .

وأيضاً ، كان لأبى كل الفضل فيما خرجت به من دروس فى أحداث عديدة تالية .

فبعد أن تعلمت القراءة على يد العريف الذى كان يقرأ ونحن نقرأ وراءه . .

جاء دور الكتابة . . فكان يعلمنا الكتابة على ألواح صفيح . . ثم يطلب منا أن نحفظ ما كتبناه . . وفي هذه الأثناء ، جاء إلى مسجدنا شيخ من بلبس إماما وخطيبا للمسجد . . فأسكنه أبى فى غرفتين بيتنا . . وكان يسهر مع أهالى القرية ليلا ، ويترك بيته . . وكان أبى يلزمنى بأن أبقى فى بيتنا إلى أن يعود الشيخ . . ويراجع ما حفظته .

ولما وجد الشيخ أننى أجتهد فى الحفظ ، قال لى : عظيم . . سوف أجعل والدك يعد لك لوحا ثانيا للبيت ، وتكتب فيه كل يوم حاجة حلوة كده .

وأصبح عندى لوحان : لوح للكتاب ، ولوح لسيدنا الشيخ . . وظللت لفترة طويلة أحفظ من هنا ، وأحفظ من هنا وعندما أجلس فى أى مكان وأعيد تسميع ما حفظته ، يدهش الحاضرون ، ويقولون : من أين أتيت بهذا ؟ إنه لا يعطى فى الكتاب .

فأقول لهم : هذا من عند شيخ المسجد الذى يسكن عندنا .

وهذه الزيادة فى حصيلة ما أحفظه ، أعطتنى تميزا بين إخوانى . وقد حببنى هذا فى الحرص على التميز ، فكنت أنا الذى أسأل الشيخ أن يعطينى واجبا إضافيا لأكتبه وأحفظه ، إن نسى ذلك .

وكان أبى يسعد كثيرا بهذا ، ويفخر به . فكان عندما يأتى إلينا جمع من أصدقائه ، ينادى على ويقول لى : قل يا بنى لأعمامك حفظت إيه وإيه .

فأكرر على أسماعهم ما أحفظه . . وهم يطلبون منى التكرار لاستحسانهم ما أنطق به . . وأنا أعيد وأكرر . . وهذا التصرف من والدى ، الذى كان يفخر بى عن ثقة واعتزاز بابنه . . كان يمنحنى أكبر الدفعات لكى أضعاف من التحصيل .

ويا ليت الآباء يشجعون أبناءهم ، على نحو ما فعل أبى ، ليصبوا منهم
أنجح الأبناء وأكثرهم تميزا وتفوقا .

وفى هذه الأثناء أعلنوا فى القرية عن إنشاء مدرسة أولية . . وأصبحت
موزعا بين المدرسة وبين الكتاب الذى يحرص عليه أبى ، وبين الغيط الذى
أحبه كثيرا ولا أريد أن أفارقه ، ولا يغيب عن بالى . . لأننى كنت أحب أن
أركب المحراث والنورج وغيرهما . . وكان أبى يتفنن فى إبعادى عن الحقل ،
لكى أتفرغ للعلم .

ووجد أبى فى المدرسة ما يخدم غرضه . . فالمدرسة غير الكتاب . . فبعد
سيدنا والعريف . . أصبح هناك الناظر ، وسيدنا الشيخ أحمد ، وسيدنا
الشيخ محمد أبو عمارة ، وسيدنا الشيخ حسن زغلول . . وكل مدرس له
فصل ونظام مدرسى .

هذا كله أخذ من وقت الكتاب . . ولكن لحرص أبى عليه ، جعله ما بين
المغرب والعشاء . . لأنه كان مصمما على انتظامى به . . لكن صديقا لوالدى
كان اسمه الحاج متولى على اسم أبى قال له : هذا إرهاق للولد . . مدرسة
بالنهار . . وكتاب بالليل !؟ الولد سيرسب ، خفف المسألة شوية .

فتهاون أبى بعض الشيء . . واستبدل الكتاب بالشيخ عبد اللطيف جودة ،
الذى اتفق معه على أن يمر على دارنا وقت وجودى بها ، ويتكلم معى
ويعطينى ويحفظنى ما يشاء . وكان الشيخ ليس له إلا فى القرآن . . وكان
يستعين على مطالب الحياة بأن يجلس وقت فراغه يقتل أجالا ، ويعد خواصا ،
ويبيعه للناس . . بينما كان شقيقه الشيخ كفاى لا يحفظ القرآن ، ولكن له فى
العلم . . فكان هو الآخر يدرس لى الفقه .

وأبى يتركنى لللاثنين ، فأنال منهما العلم الوفير . . من هذا القرآن الكريم . . ومن شقيقه الفقه الحنيف ودروسا عظيمة جدا .

وكان الشيخ كفاى ، قد حصل علمه الوفير من جلسته فى دكان صغير يبيع فيه المضغ . . ويلتقى مع الكبار والعلماء بالقرية الذين يبرون عليه يوميا ، ويتحدثون معه ، ويشتري كل منهم لفة مضغ بقرش . وكان كل رأسماله ريالاً يشتري به كل يوم دخانا ويدقه على يده ، ويعد منه عشرين أو أربعين ورقة مضغ . . ويفرغ من بيعها على الظهر ، ثم يذهب إلى الصلاة . . وبعدها يحضرون له الأكل ، ونحن نستهي أكله ، لأن زوجته كانت تحمله إليه على صينية صفراء ، ومنظره جذاب ، إلى جانب القلة التى تفتح النفس .

هؤلاء جميعا أعطوني صلة قوية جدا بالله من اقترابى منهم ومعايشتى لهم . وهكذا ، كانت حياة القرية نبعا للإيمان ، وترسيخا للعقيدة ، ومنارا للسلوك القويم والعلم والتحصيل فى أمور الدين . ومن حياة القرية تعلمت كذلك درسا لا أنساه من وفاء النيل .

فقد حدث أن غمر النيل فى الفيضان ذات مرة كل شىء . وكان الذرة لم يزل نيا . . وفوجئت بالأهالى يركبون قوارب ، ويبحرون فى مجرى النيل ، ويخلصون عيدان الذرة ، والنساء تزغرد . . فدهشت جدا ، وقلت لأبى : معقول النساء تزغرد على المصايب اللى جتنا ؟

فضحك والدى ، وقال لى : بعدين سأشرح لك .

ولما خرجنا من الهيصمة دى ، قال لى أبويا : يا بنى النيل بيحبب لنا الخير كله . . نزرع عليه ، ونعيش على الزرع طول السنة . . والذرة النية دى صحيح ما استوتش ، لكن حنبيعه بأكثر من ثمنه لو نشف .

وسأله : وعلشان كده الستات بتزغرد ؟

فقال لى : وكم ان علشان أيام فيضان النيل ، البلد لا تطبخ أبدا . . الشبان كلهم يخرجون بمشقات ويذهبون بها للنيل لملئها بالماء ، ويصطادون السمك من هذا الماء . . وكل أكل البلد يبقى سمكا فى سمك . . عايز خير أكثر من كده ؟

الخلاص .. من « مركب النقص »

ويواصل إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، مذكراته من عند واقعة تتلوها وقائع أخرى ، خرج منها بدروس ومعان عديدة . . يقول :

أذكر فى أحد أيامى بقرية دقادوس ، أن نفق عجل بقر بسبب أكله برسيما من النوع المسمى « برسيم ربة » . ولما أخرجوا الجنة من الحظيرة ، انطلق صراخ النساء ، فدهشت كثيرا لأنهن يولولن على حيوان ، وليس على إنسان .

وسألت أبى : لماذا تصرخ النساء ؟

فقال لى : النساء تصرخ وتولول لأن العجل الذى نفق ينفعهن . . يأخذن منه قطعة جبن أو بعض اللبن . . إلى جانب أن العجل يدير الساقية والمحراث ، ويقوم بكل العمل فى الغيط . . فكيف لا يصرخن على فقده ؟

وفهمت من هذه الواقعة ، أن عملية الخير عندما توزع على الخلق تمنع الحقد من النفوس . . وإذا وقعت للإنسان مصيبة فى شئ ينتفع به الناس لابد أن يحزنوا .

وقلت لنفسى : إذن ، عندما يريد الإنسان أن يحبب نعمة لديه إلى قلوب الناس ، ينبغى أن يجزل العطاء فيها .

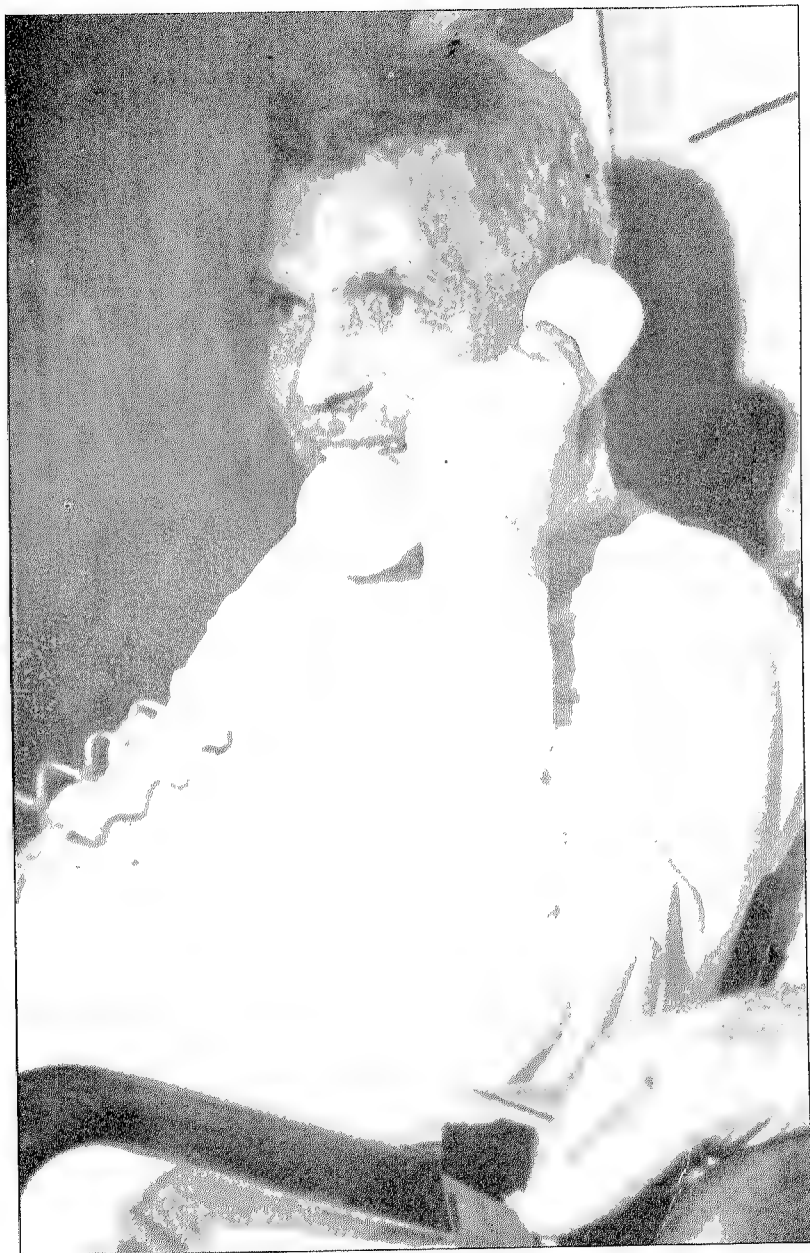
وقتها كنا فى إبان الحركة الوطنية . . وقد أروضعتنا قريتنا حب الوطنية من أيام سعد باشا .















وكان التاريخ قد حدثنا عن أحد قواد عرابي ، وكان يسمى « على خنفس » من أبناء دقادوس . . وذكر التاريخ أنه كان من أبناء دقادوس ، وتواطأ مع الإنجليز ، فأصبحت سبة في جبين القرية كلها . . وأصبحنا نخجل جميعا من هذه الذكرى السيئة . . ويعايرنا بها أهالي القرى المجاورة بأن دقادوس هي التي جلبت لهم العار . فنشأت أسرة خنفس متعصبة جدا للسياسة لكي تنسى هذه الواقعة . . وانخرطت بشدة مع أهالي دقادوس في الحركة الوطنية ، لكي تمحو العار . وأخذت من هذا قضية مؤاذاها أن الانسان عندما يكون مصابا بنقيصة لصقت به لا يصح أن يستسلم لها ، بل يحاول أن يوجد لنفسه مجالا ينبغ فيه ، لكي يحجب نقيصته . وعرفنا بعدها في علم النفس « مركب النقص » ، ويقضى بأن الإنسان عندما يرى نفسه ناقصا في شيء يحاول أن يكمل ذاته في شيء آخر لكي يرد عنه الاستهزاء . . ويتخلص من « مركب النقص » .

وبقيت هذه المسألة معنا إلى أن مات سعد زغلول في سنة ١٩٢٧ ، وكانت نكبة وطنية كبرى ، لأنه كان الزعيم المتفق عليه الذي قاد ثورة ١٩١٩ ، وكان يتميز بأنه المكتوب له القبول عند الشعب في نضاله ضد الإنجليز والسراي . . لدرجة أن الناس كانت تردد خرافات عن بطولة سعد إلى حد أن الفلاح الأمي كان يلتقط أية ورقة بها كتابة ، ويقول : دا اسم سعد ، وأكثر من هذا كان الفلاحون البسطاء يعتقدون أن العجل لما ينعر يبقى يقول يحيا سعد .

ولهذا ، لما مات الزعيم ، ثارت ضجة هائلة . وكان الشيخ مصطفى البياضى الذى سبق أن تحدثت عن حبه للشعر يحضر إلينا المراثيات التى قيلت فى سعد زغلول وملتف حوله ويكرر قراءتها لنا . . ووقتها كان شوقى موجودا وقال : « زورقا فى الدمع يطفو أبدا » . أى أنه شبه نعش سعد بزورق يبحر فى بحر الدموع طافيا فوقه .

ومرت ثلاثة أشهر بعد ذلك ، تعاقبت فيها المراثيات . . وكنا نحصر على قراءة كل مرثية . . وهذا كون لدينا حصيلة لغوية عظيمة . . كان الفضل فيها للأداء الجيد فى قراءة الشعر ، الذى اشتهر به الشيخ مصطفى البياضى برغم أنه كان فلاحا ، ولم يذهب لمدرسة ولا لكتاب . . وهذا يؤكد أن الثقافة والمهارات لا يكتسبها الإنسان بالتعلم فقط فى معاهد العلم ، وإنما يمكن أن ينبغ فيها ويتفوق بجهد الذاتى فى التحصيل . . مثلما فعل الشيخ البياضى .

وكانت قرينتنا تهتم أقصى اهتمام بالاحتفال بكل مناسبة . . المولد النبوى . . الإسراء والمعراج . . ذكرى سعد . . وهذا شجعنا أنا على الخطابة ، ومواجهة الناس ، وفجر عندنا مواهب كثيرة .

فعندما جاءت حكاية كوبرى عباس ، ومنعت الحكومة حفل تأبين ضحايا اليوم المشئوم ، وأقمنا حفلا أخذت أنا أكبر نصيب من الوقت فى الخطابة ، ولم يتحدث غيرى سوى محمود نور الدين رئيس الوفد ، الذى ألقى كلمة نشرتها الجرائد فى اليوم التالى .

ومن بعدها ، التفتت إلينا الحكومة ، وقالت إننا الذين شكلنا لجنة وطنية ونقف وراء كل التظاهرات والمشاغبات . . إلى حد أنه حدث أن عقد اجتماع فى المعهد ذات يوم ، وأردنا أنا وأقرانى ، أن نذهب إليه ونخطب فيه . . فوجدنا أنهم أغلقوا الباب بالجنازير . . فسألنى صديقى محمد شفيق محروس : كيف نحتال على الموقف ، وندخل الحفل لنخطب ؟

فقلت له : احضروا لى عجلة وطاولة ، وضعوا عليها عشرين رغيفا ، وسوف أتصرف .

وأحضرت أنا طاوية ، ووضعت طاولة الخبز على رأسى ، وأمسكت جادون

العجلة بيد واحدة كما يفعل موزعو الخبز . ودخلت المعهد بهذه الصفة . وفعلا تمكنا من الوصول للحفل بهذه الحيلة ، وألقينا ما نشاء من خطب .

وفى حفل آخر لاحق ، أقيم أيضا فى المعهد ، قال لى صديقى محمد شفيق : سوف نحضر لك هذه المرة بورى وعجلة ، كأنك سمكرى ومطلوب للمعهد لإصلاح شىء .

ونجحنا فى ذلك ، ولم يتمكنوا من اعتقالى ، بينما قبض على بقية زملائى الـ ١٣ ، فذهبت أنا وسلمت نفسى للمأمور فى جريمة رأى ، وليس فى جريمة مخلة بالشرف . . وجاء حكم القاضى فى ظاهره القسوة وفى باطنه الرحمة . . وكان يريد أن يحقق التوازن بين عواطفه معى . . وبين عقله مع القانون . وفصلت من الأزهر . . ثم عدت إليه بعد أن أحرقت كل هذه القضايا فى ميدان لاطو على . . وهكذا ترسخ يقينى بأن كل باطل لابد إلى زوال ، طال أمده أم قصر .

وترسخ أكثر هذا اليقين عندى . . من خلال مشاركتى فى غصبة الأزهر . . وقت أن كان شيخ الأزهر هو الشيخ الأحمدي الظواهري .

وكان علماء التخصص ، هم الذين يدرسون ثلاث سنوات بعد العالمية ويعينون بخمسة عشر جنيها . . وحدث أن أراد شيخ الأزهر تعيين ١٥ عالما ، فنصحه البعض بأن يعين عددا أكبر ، وليكن ٥٠ عالما ، بمرتبة أقل لايزيد على ثلاثة جنيها شهرى . وقالوا له : إن الذين تخرجوا حديثا ، كانوا إلى عام مضى يعيشون حياة الطلبة بثلاثة جنيها ، وحتى بجنيه واحد .

وبالفعل ، أخذ باقتراحهم . . ووجد فى ذلك خصومة من أتباع الشيخ المراغى شيخ الأزهر السابق - فرصة للتنديد بتصرفه ، ونشروا أن الشيخ الأحمدي الظواهري وظف العالم بثلاثة جنيها .

وثارت الضجة ، برغم أن الذين عينوا وافقوا بالفعل على مرتب الثلاثة الجنيهات . . ولكنها أصبحت قضية يذكى ناراها خصوم الشيخ الأحمدي . . مما دفعنا إلى القيام بثورة نطالب فيها بضرورة خروج الشيخ الأحمدي ، الذي كان الملك متمسكا به .

ولجأنا إلى توسيط بعض السياسيين ليتحقق مطلبنا . ونجحت مساعيها ، وخرج الشيخ الأحمدي من مشيخة الأزهر . . وجاء من بعده الشيخ محمد مصطفى المراغي ، الذي كان شيخا للأزهر من قبل ، وحدث بينه وبين الملك فؤاد خلاف فأقاله . . ومع عودته بفضل غضبتنا ، فرحنا جميعا ، وقلت في هذه المناسبة قصيدة مشهورة ، كان مطلعها :

الله أكبر هذا أجر من صبروا

وجاهدوا في سبيل الحق فانتصروا ~

أيام كنت زعيما للطلبة

ويكمل فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ذكرياته ، عما جرى بعد عودة فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى إلى تولى مشيخة الأزهر ، وهى النقطة التى توقفت عندها مذكرات الشيخ الشعراوى الجمعة قبل الماضية .

يقول إمام الدعاة :

.. وعندما عاد إلينا الشيخ المراغى .. أثبت لنا أنه يحب العلم بحق ، لأنه جعل الملك فاروق يأتى إلى المسجد ، ويجلس مع المصلين ، ويحضر الدرس بين المغرب والعشاء .. ويستمتع معنا فى اهتمام مثلنا تماما .

وهذا الموقف ، كان يرفع معنوياتنا كثيرا . وأصبح الشيخ المراغى الذى استطاع أن يحضر الملك إلى المسجد ، وكأنه طالب أزهرى ، أسطورة بالنسبة لنا .

وأذكر أنه كان لى موقف مع فاروق أيام أن كان أميراً للصعيد .. فعندما بعث به والده الملك فؤاد إلى إنجلترا لتكملة تعليمه ، وذهبنا لتوديعه فى ميناء الإسكندرية ، وكان معنا شيخ المعهد ، وجميعنا نضع العمام فوق رؤوسنا . وعندما صعد فاروق إلى الباخرة ، رفعت يدى وصحت قائلاً له : « سر إلى الغرب ، رافقتك السلامة يا أمير الصعيد ، وانعم بالإقامة ، واصحب العزم فى ركابك ، حتى يقضى الله مانويت اعتزامه ، فلك الله حارساً ونصيراً » .

هذه كانت صلتى بفاروق ، قبل أن يتولى العرش . . والحق أنه كان مهذبا ،
وعنده قبول . . وعندما تزوج ، احتفل الأزهر بزواجه الأول . . وقال لنا
سيدنا الشيخ : يا أولاد عندما يكون ملك فى سن الشباب مثل فاروق ،
ويعجل بزواجه ، ويعف نفسه ، فهذا دليل على أنه يريد أن يعيش طاهرا .

واستغرق شيخنا وقتا طويلا فى تحبيب الملك الشاب الذى أصر على الزواج
مبكرا إلى نفوسنا . وقد قلت قصيدة فى مناسبة زواجه من الملكة فريدة ،
ونلت جائزة عليها . . وكان مطلعها :

صاحب التاج عش مهننا ممجدا

ولواء للشرق فى مصر يعقد

أنت رمز المنى لشعب وفى

واحدا فى الولاء لا يتعدد

وكان وقتها يتمتع بحب الشعب جميعه . . لهذا أقام كل بيت فرحا ابتهاجا
بزواجه . . ولم تكن قد خلعت عليه بعد الأوصاف التى بدلت من صورته عند
الناس . . لقد ظل طيب السيرة إلى أن أفسده المحيطون به ، الذين زينوا له
ارتكاب ما لا يرضاه الشعب عنه ولا يقره .

وعلى ذكر ما كان لى وقتها مع المرحوم الشيخ المراغى ، وحبه الشديد
للعلوم . . كان موقفه هذا يضاعف من حبى أيضا للعلوم . . وقد حملنى هذا
تبعات كثيرة ، أنا وصديقى المرحوم محمد فهمى عبد اللطيف ، الذى كان
يعمل فى جريدة « الأخبار » . . فعندما اشتغلنا بالسياسة ، حرصنا على ألا
نكون طلبة خائين ، مثل الذين يهربون للسياسة . فقلت لزميلى وصديقى :
يا محمد . ينبغي ألا نتخلى أبدا عن جدية طلب العلم ، وسوف نتعب بعض
الشيء لكننا سنكون ناجحين ، ولا يعايرنا أحد بالفشل فى الدراسة .

واتفق معى صديقى فى ذلك المنهج تماما ، فكان عملنا مزدوجا وطنيا وعلميا . . وكان تقدمى الكبير فى العلم ، وأنا زعيم للطلبة ، يجعل الآخرين يؤيدون زعامتى ، ويقولون إننى استحقها بحق .

وأصبحنا نقضى الليل فى استذكار العلم ، وطوال النهار نرتب للتظاهرات والإضرابات ، وأخذنا بذلك وضعنا عند الطلبة سياسيا ، بما لا يتقص من وضعنا العلمى . وكان أساتذتنا يضربون بنا المثل ويقولون : هؤلاء الطلبة هم الذين يعرفون الطريق الصحيح .

وكلما ردد الأساتذة ذلك ، زاد التفاف الطلبة حولنا .

وعندما أدخلت العلوم الرياضية فى الدراسة الأزهرية . كان يأتى إلينا طلاب المدارس الثانوية من أجل تنظيم الإضرابات والعمل السياسى ، وعندما تنتهى منها ، نتوجه إلى العلم . . ويستعين بنا طلاب المدارس أيضا فى حل مسائل الجبر والهندسة ومعاملات الكيمياء التى كنا ندرسها مثلهم تماما ، وكانت قدرتنا تثير دهشتهم ، إذ كيف يتقن طلاب الأزهر المسائل الرياضية ومعادلات الكيمياء أكثر من طلاب الثانوى ؟

ولم يكن أحد منهم يعرف السبب وراء ذلك . فقد كنت عندما أذهب إلى قريتى فى الإجازة ، أحرص على الجلوس إلى طلاب الجامعة من أبناء القرية ، وأسألهم عن المحاضرات التى تلقوها فى الرياضيات والكيمياء ، وأطلب منهم المذكرات الخاصة بها ، وأبقيها عندى أياما أعكف فيها على استيعابها ، برغم أنها كانت فى مستوى أعلى كثيرا جدا من مستوى ما ندرسه فى الأزهر .

لذلك ، اعتاد الجميع منى أن أنشر ثقافة لا تتضمنها ثقافة الأزهر ، ويعجبون لذلك . وكان الشيخ محمد العزاوى وكثيرون معه من شيوخ القرية

يشيدون دائما بقدرتي الفائقة في الحفظ ، وذاكرتي التي لا تنسى أية تفاصيل في أى عام ألممت به حتى الجامعى .

وحدث يوما أن زارنا شخص اسمه محمد إبراهيم ، وكان ثوريا من الذين يسكنون العنابر ، التي كانت معقل الثورة المشتعلة في بولاق . وقلت له إنه حدث بالأمس موقف مع الدكتور محمد يوسف حجازى ، أستاذ اللغة . فقد ورد في درسه سيرة حديث نبوى اسمه حديث « أم زرع » . . وهو أطول حديث روى عن رسول الله ﷺ . . وكان الأستاذ يذكر من الحديث كلمة ، وأنا أكمل ما بعدها . . فسألنى : إنت يا واد حافظ الحديث ؟ فقلت له : نعم .

فطلب منى أن أقف وأرويه . . ورويته كاملا وصحيحا . . وكان يحضر هذه الواقعة الدكتور عبد المنعم خفاجى . . فطلب منى الدكتور حجازى أن أقسم بالله العظيم . . فسألته : أقسم على ماذا ؟

فرد قائلا : تقسم على ألا تقرأ هذا الحديث مرة أخرى أمام أحد .

فسألته : لماذا ؟ أنت الذى طلبت منى روايته فرويته .

فرد الدكتور حجازى : لو فعلت هذا سوف يحسدك السامعون .

فتدخل الدكتور خفاجى قائلا : الشيخ الشعراوى سوف ترد عنه نيته الخالصة للعلم أى عين تحسده .

وهنا أذكر أننى سألت الشيخ محمد مصطفى شيخ الحديث بعد حكايتى مع الدكتور حجازى : كيف يكون حديثا عن الرسول وهو ﷺ لم يقل فيه سوى خمس جمل فقط ؟ ورغم هذا يسمونه حديثا ؟ فرد شيخ الحديث قائلا لى : الحديث هو كل ما قاله رسول الله ، وكل ما سمعه وأقره ، وكل ما فعله وإن لم يقله . . فالذى روايته حديث .

وكنا نحرص على تحصيل العلم ليس فقط من مواقع الدراسة . . ولكن نحصله أكثر من مواقع الناس والأحداث في الحياة العامة ومن المناسبات المختلفة . . وقد ترسخ في يقيني من وقتها أن « علم المدارس » يمثل فقط ما سوف أؤديه في الامتحان آخر العام . . وبعدها يتبخر تماما من الذهن . . ولكن العلم الحق الذي يأتي من خارج الدراسة ، ويتم تحصيله طواعية فيستحيل أن ينسى . . لأنه يرتبط بموقف أو مناسبة معينة ، ويأتي في توقيت يختاره المرء بحريته ، وليس بدافع دق الجرس الذي يدعوك لحضور الدرس ، سواء أردت أو لم ترد وسواء كان يعجبك أو تنفر منه .

ومن هنا ، فلننى أوصى الشباب بالحرص التام على التقاط أى معلومة تطرح أمامه فى أية مناسبة واختزانها فى ذهنه ، أو تسجيلها فى مذكرة . . فإنه من جملة هذا كله ويتابعه على مر الأيام ، تتكون لدى الإنسان تلقائيا حصيلة ثقافية كبيرة من المعارف المتنوعة ، التى تكون زاده للتفوق والنجاح فى الحياة العملية .

الزواج بعد الابتدائية

ويواصل إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، الحديث الذى توقفت عنده مذكراته الجمعة الماضية ، وكان يسجل مدى اهتمامه بتحصيل علوم الدنيا مع علوم الدين معا ، حتى ذاعت شهرته بين طلاب المدارس الثانوية بقدرته الفائقة فى حل معادلات الرياضيات والكيمياء برغم أنه لم يكن يدرس منها كطالب بالأزهر سوى مناهج محدودة لا ترقى إلى مستوى ما يدرسه طلاب الثانوى العام .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوى فى مواصلة مذكراته :

وعن أخلاق العلماء ، الذين أردت أن أكون واحدا منهم أقول : إن العلم يكون فى ساعات أعز على العالم من نفسه . . هذا إذا كان إقراره بالفضيلة يزيده ويجعله مأمونا على كل ما نسمعه منه ، وهذا الخلق يشجع من لديه بعض من الموهبة على أن ينميها وينفخ فيها لكى تتأجج ، ولا ينفخ فيها لكى تنطفئ . . لأنك تنفخ فى النار لكى تتأجج ، وتنفخ فى شمع لكى تطفئها . . فالنفخة واحدة فى الحالتين . . ولكن الذى ينفخ فيه هو الذى يختلف . . فهذا خلق العلماء الذين يفتح الله عليهم بتجليات من عنده .

والعالم الحق هو الذى يستقبل القرآن ، كلام الله ، بنفس غير مشغولة بغيره . . وتكون بؤرة شعوره خالية لتلتقط فورا كل معلومة من كتابه الحكيم ،

لا أن تكون مشغولة بأمور أخرى ، ومهما سمعت المعلومة ألف مرة لا تلتقطها . . ولهذا كان إخواننا المكفوفون أقدر دائما على حفظ العلم ، لأن عيونهم لا تكون وقت تلقي المعلومة تقع على مرأى آخر يتحول ببؤرة شعورهم إلى أمور أخرى .

وهذا يوضح لنا حاجة المرء إلى صفاء ذهنه تماما ، وهو يستمع إلى القرآن الكريم أو يقرؤه . . فهذا يجعله يتلقى التكاليف بنفس راضية ويتلقى الأقدار بنفس مطمئنة مسلمة بقضاء الله وقدره . . فعندما تمر به أحداث لا يستطيع أن ينهض بأسبابها ، يرجع للرسول الأول ، ويقول : يارب لجأنا إليك في كل معطوب يتتابنا . ولا يسلم نفسه لشهواته فتغلبه على أمره ، لأن الإنسان بطبعه الفطري لا يحب إلا السلامة فقط لنفسه .

وفى مسألة حتمية إخلاء الذهن تماما من أى شواغل أخرى لكى يحسن الإنسان استقبال المعانى فى كتاب الله ، واستيعاب أى معلومات جديدة عن أى مصادر أخرى ، فإن عليه أن يخرج من قلبه النقيض أولا ، لأن الحيز لا يمكن أن يستوعب أمرين ، فيجب أن يخرج الأمرين خارج العقل ، ثم تبحث الأمر بعقلك جيدا ، ثم تدخل ماترتاح إليه .

وحتى الطفل الصغير يدرك أن الحيز لايسع إلا شيئا واحدا . . فعندما يريد أن يجلس إلى جوار أبيه ، يجد شقيقه يحتل المكان الذى يريده ، فإنه لايجلس فوق شقيقه ، ولكن يجذبه بعيدا أولا ، ثم يجلس إلى جوار أبيه ، فإنه يفهم بالفطرة أن ذلك الحيز إلى جوار الأب لايتسع إلا لواحد فقط .

وعلى ذكر العلم . . فقد كان معهد الزقازيق الأزهرى ، الذى أنشأه الملك فؤاد بعد أن أدى الأزهر دوره فى الحركة الوطنية ، وانتظمت فى أروقته ، يعتبر قلعة للعلم ، وكانت حياتنا تمضى بين قريتنا دقادوس وبين الزقازيق . .

وظللنا هكذا إلى أن قضينا تسع سنوات دراسية ، فأصبحت الزقازيق بالنسبة لى هى المدرسة التى حصلت منها كل شىء ، حيث التقيت بجميع إخوانى .

وكان هذا المعهد مشيدا على أساس أن يكون لكل طالب سكن فيه ، ومزود بالمصلى وجميع المرافق العامة ، ومع هذا ، كنا نحرص على أن يكون لنا سكن خارجه ، لأننا كنا نحب السهر والخروج من المدينة .

ومرت علينا خلال سنوات إقامتنا بالغرفة تجارب عديدة . وفى أول تجربة منها ، بعد أن حصلت على الابتدائية الأزهرية ، حدث أن جاء والدى لزيارتنا يوما فى الغرفة بالزقازيق ، فوجد ابنة صاحبة البيت الذى نسكنه تجلس معنا ، وكانت تلميذة صعب عليها حل مسألة رياضية ، فلجأت إلينا وأفهمناها الحل . وكانت على وشك الانصراف .

لكن والدى دخل علينا ، ولا أعرف ماذا دار فى ذهنه ، لأنه بعد أن عدت إلى قريتى فوجئت به يصير على زواجى .

وتغير بناء على ذلك برنامجى الأسبوعى . . أقضى طوال الأسبوع فى الزقازيق ، وأسافر إلى القرية يوم الخميس وأقضى ليلة الجمعة وليلة السبت ، ثم أعود إلى الزقازيق فى قطار الفجر .

وذات مرة تأخر القطار بعض الوقت . . ووصلت إلى المعهد بالزقازيق متأخرا . . فرأيت شيخ المعهد جالسا كعاداته على بابهِ . . وحاولت الإفلات منه ، لكنه كان قد لمحنى فقال لأحد السعاة : هات الواد ده هنا .

وسألنى : لماذا تأخرت ؟ فقلت له إن القطار تأخر نصف ساعة ، وليس أنا .

فسألنى : ولماذا لا تحتاط ، وتأتى مساء الجمعة ، بدلا من فجر السبت؟

فقلت له : أنا متزوج يا سيدى . .

فسألنى : والجواز كويس واللا وحش ؟ فخشيت أن أقول كويس ، فيعتبرنى قليل الأدب . . فقلت له : والله قلة قيمة .

فقال لى : ادخل ، وإياك تتأخر تانى .

وانتهى الموقف عند هذا الحد . . ولكن عندما رأتى صباح اليوم التالى ولم أكن متأخرا ، وجدته ينادينى : يا ولد . . قلة قيمة . قلة قيمة .

وكررها أكثر من ثلاث مرات . . وكان ينتهى فى كل مرة بعبارة بس خلاص اسكت . . وسأله المشايخ الذين يدرسون لى : إيه حكاية قلة القيمة دى ؟

فقال : أنا سألت الشعراوى عن الزواج امبارح ، فقال دا قلة قيمة . . وبعد أن عدت لبيتى وجدته قلة قيمة بصحيح .

وهذه المسألة جعلت المشايخ يعتقدون أنى قريب شيخ المعهد ، ويتبادل حديثا شخصا معى . وكان يسأل الشيخ محمد سرور والشيخ مرسى سليم وغيرهما عنى ، فكانوا يؤكدون أننى طالب مجتهد . . وهذا الوضع جعلنى اكتسب مكانة خاصة عندهم ، وأصبحوا يطلبون منى الخطابة فى كل مناسبة . فاعتدت عليها ، وشجعنى هذا على تشكيل لجنة أدبية كانت تضم الدكتور عبد المنعم خفاجة ، والشيخ حسن جاد ، والأستاذ طاهر أبو فاشا . . وأصبحت لى مكانة متميزة فى مدينة الزقازيق .

وأذكر فى هذه السنوات أن زار الزقازيق رئيس الوزراء ، وكان وقتها إسماعيل صدقى ، وعندما ذهبنا إلى السرادق الكبير لحضور الحفل ، كان

قارئه هو الشيخ على خزيم ، رحمه الله ، وكان يعتبر قمة القارئين فى ذلك الوقت ، وكان أداؤه جميلا ، وله هيبة ورونق . . وعندما بدأ القراءة ، قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وارتيك من وجود إسماعيل صدقى ، فلم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ودخل مباشرة فى آية ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ﴾ (مريم : ٥٤) ، فسر إسماعيل صدقى بهذا . والذين ينافقونه رددوا : أعد . . أعد . . ثم انخرط الشيخ فى القراءة .

وفجأة وقف شخص من أتباع رئيس الوزراء وأعطاه ورقة بيضاء طويلة ، وقال له : خذ سيجارة من الباشا .

فلما أخذ الورقة ، فتحها وظهرت منها ورقة مالية من فئة المائة جنيه ، ملفوفة بها . فاندفع الشيخ على خزيم فى تعليق ظريف ، وكان خفيف الدم : « رينا ما يحرمننا من سجايك يا باشا » .

فاقترب مستمع من الحاضرين منه ، وقال ردا على تعليقه : بس ما تبقاش كيف .

وهكذا ، كانت حتى الغلطة من القارئ بنسيان قراءة بسم الله الرحمن الرحيم تنطلى على السياسى الكبير ، وترضى غروره ، ويجزل العطاء لها ، لعلها تتكرر ، غير مبال بأن المسألة تتعلق بقراءة لآيات الله .

شر.. جاء بخير!

.. ويواصل إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، ذكرياته مع سنوات الدراسة بمعهد الزقازيق الدينى الذى انعقدت له على أيامه - بفضل مواقف المعهد الوطنية - القيادة السياسية وسط مدارس المنطقة بأكملها . . يقول الشيخ الشعراوى :

وحدث أن حولوا إلى معهدنا الطلاب المنقولين إلى الثانوى من طلاب معهد الزقازيق ، الذى لم يكن يضم سوى المرحلة الابتدائية . . وجاء إلينا وقتها الشيخ حسن جاد والشيخ طاهر أبو فاشا والشيخ لطفى مصطفى . . وكانوا من أبناء بحيرة المنزلة . . وأهالى هذه المنطقة صيادون . . وكانوا يبعثون بصيدهم من السمك يوميا إلى حلقة الزقازيق . . ولكن آباء الأصدقاء الذين وفدوا إلينا من بحيرة المنزلة كانوا يبعثون إلى أبنائهم مع عربة السمك القادمة إلى الزقازيق مقطفين خاصين من السمك لهم . . ولأننا كنا طلبه على قدر حالنا ، ولا نريد أن نشترى زيتا لنقل السمك . . فكان الأيسر علينا أن نقوم بشيه .

وبينما كانت المجموعة غارقة فى تناول سمكة بعد الأخرى بعد قطع الرأس والذيل وتركهما مع البطن الرقيقة التى بها السفا . . كنت أنا أنفرغ لمضغ هذه الأجزاء ، لأن أكله بسيط ، وهم يتساءلون فى دهشة : هو الشعراوى ييمضغ إليه ؟

والعجيب أننى من هذا الموقف ، لم أعد استسيغ تناول السمك إلا من الرأس والبطن . . حتى إن الصديق الذى كان يحب أكل الجزل ، كان يسارع للجلوس إلى جانبي ، فأقدم له فى الحال نصيبى من الجزل ، وأكتفى أنا بالرأس والبطن .

فى هذه الأثناء صدر تصريح هور الذى أساء إلى مصر ، عندما ادعى أنها لا استعداد لديها للاستقلال وحماية نفسها . وقد أثار هذا التصريح الحمى الوطنية فى البلاد بأجمعها . . وأدى إلى أن يتناسى الزعماء ما بينهم من خصومات ، ويتحدوا فى موقف واحد شامخ ضد التصريح .

وأذكر فى إبان التظاهرات التى اندلعت فى كل مكان ضد هذا التصريح . . أذكر أننى وقفت يوماً فى المعهد ، وتكلمت عن التصريح . . وقلت إنه عندما يتسبب فى اتحاد الأحزاب ، فإنه يكون شرا جاء بخير . . داء ودواء خلق الجبهة ، ووحد الزعماء . . وأثار الشباب ، فكانت الدماء . . وكان الدستور وسيكون الجلاء .

وحدثت وقتها مذبحة كوبرى عباس ، وقلت فى حفل تأبين شهداء المذبحة الخمسة : شباب مات لتحيأ أمته . . وقبر لتنشر رايته . . وقدم روحه للتحف والفناء قربانا لحرية . . ومهرا لاستقلال كنانته .

وقد أدى هذا الاحتفال إلى انعقاد راية القيادة السياسية لمعهد الزقازيق وسط مدارس المنطقة . . ومنه تخرج التظاهرات .

وحدث فى ذلك الوقت أن أجروا بين علماء الأزهر مسابقة فى العلوم الحديثة - أى الرياضيات من جبر وهندسة - ونجح فى المسابقة كثير من العلماء ، فعينوا لتدريس هذه العلوم لنا .

وأذكر أنه كان من بين هؤلاء العلماء سيدنا الشيخ سيد الباز ، والد أسامة والدكتور فاروق الباز . . وكان بحق من العلماء المخلصين الأذكياء . .
وحدث أن توقف مرة في درسه عند الكسور الاعتيادية ، وكنا في شهر رمضان . . فجاء الشيخ سيد الباز في اليوم التالي ، وسألنا في بداية الدرس :
ماذا فعلتم بالأمس بعد الإفطار ؟

فقلنا له : صلينا التراويح . .

فسألنا : صليتم التراويح كم ركعة ؟ .

فقلنا له عشرين ركعة .

فسألنا : أول ركعة في العشرين تكون كم ؟ . فقلنا له : واحد على عشرين .

فسألنا : والركعة الثانية ؟

قلنا له ٢ على ٢٠ .

فقال لا . . تبقى العشر . . لأنه لا يجوز قراءة الرقم بهذا الشكل . . مادام يمكن اختصاره إلى أقرب صورة . . وأقرب صورة للقراءة في هذه الحالة تكون العشر .

وظل باستخدام عدد ركعات الصلاة والتراويح يعلمنا الكسور الاعتيادية . . حتى استقرت في أذهاننا تماما القاعدة التي تقضى بأن نرد كل كسر إلى أقل حد ممكن .

وقد ساعدني كثيرا على استيعاب الرياضيات صديق عزيز ، كان يجلس إلى جوارى في التختة ، هو الشيخ حسن جاد ، أطل الله عمره . . كان خطه

من أجمل ما يكون . وكان صاحب خلق نسميه خلقا ناعما ، ويتمتع بأدب عال وحياء . فلما وجد أن خطي عاجز ، تطوع من نفسه لإعداد دفتر لي للرياضيات ، مثل دفتره تماما .

وهكذا كان تعامل الأصدقاء في زمن الصفاء . . خلقا ووفاء . . ومبادرة بتقديم المعاونة والعطاء بغير أن يطلب مادام الصديق في حاجة إليه . . وهذا الذي عشته واعتدته يجعلني أسائل نفسي اليوم حينما أصدم في أحوال الأصدقاء : ما الذي جرى ؟ كيف تبدلت الأحوال وتغيرت النفوس على نحو ما أصبحنا نراه ونحزن له ؟ سبحان الله . . ولادوام إلاله وحده سبحانه وتعالى .

ومن أصدقاء تلك السنوات الغالية ، العزيزة على النفس ، طاهر أبو فاشا رحمه الله ، ونوادره التي لا تنسى . . ففي أحد الأيام ، وكنا في أول الشهر ، ذهبنا مع أربعة من أصدقائنا إلى محل شهير لتأكل كبابا وكفتة . . وكان الرطل وقتها بستة قروش ، ومعه العيش والسلطة وكان الواحد منا يكفيه نصف رطل وكالعادة ، تناول أصدقائي الخمسة طعامهم وخرجوا ، وانتظروا على باب المطعم . . وتركوني أنهي وجبتي على مهل كما اعتدت .

ولما وجدتني وحيدا ، ولا بد أن أدفع أنا الحساب . . أسلمت أمرى لله ، ودفعت المبلغ ، وكان ١٧ قرشا .

ولما خرجت ، سألت طاهر أبو فاشا صاحبه الأصدقاء خارج المحل ، كأنه لا يعرف : أmaal مين اللي دفع الحساب ؟

فرد عليه صديق اسمه المهدي مصطفى : الشيخ الشعراوي . . يعني أنت كنت حتدفع بداله يا أخي ؟

فرد ضاحكا : بالطبع لا . . لكن أنا عايز بس احترمه .

وبعدها ، أصبحت مثلا . . ففى كل مرة ندخل كأصدقاء مكانا مانسأله
عندما ننصرف : هتدفع الحساب . . ولا حد فينا يدفعه وتحترمه ١٩

وأذكر فى نادرة أخرى من نوادر أبو فاشا . . ماجرى مع بنت كانت تبيع
الفجل أمام المعهد ، اسمها ستيتة . . وكان زملاؤنا فى السكن يمدون أيديهم
من الشبايبك ويشترون منها . . وفاجأنا طاهر أبو فاشا يوما بقصيدة من النوع
الحلمنتيشى فى ستيتة . . كان مطلعها : يا أم سعد مال فيجلك غال .

وفى مرة ثالثة ، كنا لمجلس على قهوة اسمها قهوة المثلث فى أكبر شارع
بالزقازيق : وكان هذا اللقاء بين الأصدقاء يتكرر كل خميس . . نتناول
السميط والبيض ونشرب الشاى . . واستلقت نظرنا شخص لم نعتد رؤيته فى
المقهى ، يجلس فى حالة عظمة ومنجعة . . فنظر إليه طاهر أبو فاشا والتفت
إلينا متسائلا : الراجل ده عامل كده ليه ١٩

فقلنا له : مالنا وماله .

فرد علينا فى حدة : لا . . أنا لازم أهزؤه .

وأسرع وجذب كرسيا وجلس ملاصقا للرجل وهو يقول له : عن إذنك .

فرد الرجل : عن إذنك إيه ١٩

فعاجله أبو فاشا : يعنى عن إذنك حاقعد هنا .

وجلس ، وسأل الرجل : أنت اسمك إيه ؟

فرد الرجل : وأنت مين يعنى ١٩

فقال أبو فاشا : واحد من خلق الله . . مش عاجبك ولا إيه ؟

كان كل همه أن يجبر شكل الرجل . . ولما لم يغضب الرجل ، قال له أبو
فاشا : صليت على النبي .

فرد الرجل : اللهم صل عليه .

فقال أبو فاشا : بقول لك صليت على اللي قدمه برقابتك ؟ فأدرك الرجل
أن أبو فاشا يجره جرا لخناق . . فأخذها من قصيرها وترك المقهى ، ولم يظهر
فيه بعد ذلك أبدا . . ومن يومها اعتاد المشايخ مداعبة أبو فاشا فيقولون له كلما
التقوا به : صليت على اللي .

مع أساطين الفن الأربعة

ويستعيد إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، فى هذه الحلقة من مذكراته نواذر طريفة لأصدقائه لا ينساها من أيام دراسته معهم فى معهد الزقازيق الدينى . . تجسد كيف كان فكر الناس عن الحياة التى يعيشها الملك فاروق . . وكيف كانت أحوال الدنيا والمعيشة فى الخمسينيات .

يقول الشيخ الشعراوى :

أذكر أن أعد لنا يوما عم أحمد جاد فى « كائتين » المعهد طبق فول تمام ، و«وضبه » بالزيت والليمون ، ودخل علينا ونحن نتناوله بشهية أحد أصدقائنا ، وهو الشيخ مصطفى سمك . . وكان ضخم الجثة . . وفيه كثير من طبيعة الشراقة وسألنا : هوه الملك فاروق يا أولاد بياكل فول زينا ؟

فرد عليه الشيخ عبد المقصود دراس ، وكان يأكل معنا : آمال يا أخى . . دا التابعى بتاع دمياط عمل له قدرة من دهب وسوى له الفول فيها . وأكله فى رمضان .

فعلق الشيخ مصطفى سمك : معقول . . لازم كان عليه لحمه .

ووقتها كان كل طالب منا يحمل معه ، عندما يأتى من بلده إلى الزقازيق ، ما توفر له من الطعام . . فتلقفه ونأكل معا . . وظللنا على هذا الحال إلى أن

حصلنا على شهادة الكفاءة . . وكانت بعد دراسة سنتين فى الثانوى ،
وبعدهما نحصل على التوجيهية ، بعد سنتين آخرين . . ثم نتوجه إلى
الكليات فى القاهرة .

وكان بعضنا يكتفى بشهادة الكفاءة ، ويعمل بها مدرسا إلزاميا . . وأنا كنت
أفضل ذلك ، وقلت لأبى : أنا نفسى أرجع البلد ، وأتوظف فى المدارس
الأولية .

ولكن أبى رفض بشدة . . وسألنى رحمه الله : هو مدرس إلزامى مرتبه
لحام ؟

فقلت له : ثلاثة جنيهاً .

فقال لى : اعتبر نفسك موظفا عندى . . وسأعطيك أربعة جنيهاً
شهريا . . وسوف أمنحك أيضا كل علاوة تتقرر . . ولكن عليك أن تتفرغ أنت
للعلم .

فقد كان هذا الأمر يهيمه للغاية . . وأكملت طريقى إلى التوجيهية ومعى
اثنان فقط من أصدقائى . . فكان علينا أن لجمع صحبة جديدة من
الأصدقاء . . وكان من بينهم أحمد عاصم . . وكان من بلد اسمها أبو
الشقوق ، التى كانت قرية محمد حسين هيكل صاحب رواية « زينب » التى
تعتبر أول رواية نقلت إلى السينما . . ولما أردنا مشاهدتها ، طلبنا من أحمد
عاصم أن يكلم مؤلفها ابن بلده ليحصل لنا على ثلاث تذاكر مجانية . . بدلا
من أن ندفع فى التذكرة ثلاثة تعريفة . . فجاء إلينا بعشر تذاكر .

وهكذا كنا أول من شاهدوا أول فيلم سينمائى مصرى ، هو فيلم زينب . .
وسعدنا وقتها بهذا كل السعادة . . وطلبنا من أحمد عاصم أن يبلغ ابن بلده

إعجابنا الشديد بروايته . . فقال لنا إنه ليس فقط بليدياته لكنه ابن خاله . . فشجعنا هذا على أن نطلب منه أن يمدنا بنسخ من كتابه « حياة محمد » . . فأحضر لكل منا نسخة ، واعتدنا أن نعكف بعد كل عشاء على قراءة صفحات منه ، وكان هذا الكتاب من أهم العوامل المؤثرة التي حبت الأدب إلى قلوبنا .

وأصبحنا بهذا أدباء وشعراء وأزهريين . . فكان الأدب يتطلب منا الفن والشعر . . والأزهر يتطلب منا الورع والتقوى . . ومن ثم كان علينا بالضرورة أن نجتمع بين الفن والتوقر . . وكان الأمر يشق علينا لأننا نسمع مثلاً شعر الغزل . . ولكننا لا نستطيع أن نقول شعراً في الغزل لأننا أزهريون .

أيضاً أسعدنا كثيراً وامتعنا في ذلك الوقت قراءتنا لكتاب للمرحوم أحمد شوقي ، كان عنوانه : « أسواق الذهب » . . وكان من الشر الرفيع . . ولما قرأه لنا الدكتور عبد المنعم خفاجة ، وجدناه يتكلم عن الفن كلاماً واسعاً بعض الشيء . . ويقول : أساطين الفنون أربعة . . وأساطين تعني أعمدة . . الأول : شاعر صار بيته على ألسنة الناس . . والثاني : مصور نطق زيتيه . . والثالث : مثال نطق حجره . . والرابع موسيقى بكى وتره .

فقلت : كلمة النحت والتمثيل لا تناسبنا ، والموسيقى يمكن أن تناسبنا بشرط ألا تكون مهددة للعواطف ولا مهيجة للمشاعر .

وقطعنا وقتاً في الأخذ والرد مع بعضنا البعض . . إلى أن توجهنا إلى أستاذنا لنا كان اسمه عبد العزيز عبد الحق - رحمة الله عليه - كان يدرس لنا التاريخ . . وطرحنا عليه موضوع حوارنا . . وكان أستاذاً بحق ، يعتبر التلاميذ أبناءه . . فقال لنا : لأنكم أزهريون ، ستنظرون إلى الفن على أنه عيب .

فطلب مني المتحاورون أن أبدا وأطرح موضوعاً لنحدد موقع الفن منه . .

فاقترحت أن نحدد معنى كلمة فن أولا . . لكيلا نفقد أزهرتنا في سبيل الشعر .

وأخذنا نبحث عن تعريف كلمة فن . . فوجدنا أن كلمتي فن وفنان مأخوذتان من الحمار الوحشى . . بمعنى أن الفن يجمل كل شيء لكى يروق فى المنظر . . حتى منظر الحمار الوحشى البعيد عن كل جمال . . وانتهينا إلى أن الشعر فى حد ذاته ليس حراما . . لكن المهم فى أى مجال نستخدمه ؟ . . فمثلا ، لا يقال السكين حرام أو حلال . . لأننا لو استخدمنا السكين فى ذبح فرخة تكون حلالا . . وأما إذا جرحنا بها إنسانا تكون حراما . وعلى هذا ، قال لنا الشيخ حسن الإمام : عندما يريد أحد أن يقرض شعرا فى الغزل . . فليكن غزلا شرعيا .

فقلت له : إذن على كل منا أن يكتب شعرا فى الغزل الشرعى ، ويأتى به إلينا غدا . . ورحب الجميع . . وفى اليوم التالى ، اجتمعنا وكنت أول من سألوني : ماذا قلت ؟ . . فقلت لهم :

من لم يحركه الجمال فناقص تكوينه

وسوى خلق الله من يهوى ويأذن دينه

وقد قال رسول الله ﷺ : إن من البيان لسحرا ، فمنه البيان المعبر ، وإذن لا تقول إن الفن سيئ . . إلا إذا نقلنا من جمال إلى قبح .

وقلت يوما لبعضنا : مادمنّا أزهرين وشعراء . . فلنحاول أن نمسك بالأشياء التى للشرع فيها رأى وندخلها الأدب . . فبدأنا باختيار آية ﴿ ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) ، وكان أن قلت فى هذا المعنى :

يا من تضايقه الفعال من التى ومن الذى
ادفع فديتك بالتى حتى ترى فإذا الذى
وحدث أن أعجب بها الأصدقاء أشد الإعجاب . . حتى إن بعضهم كتبها
وصورها وقام بتوزيعها على معارفه وأصدقائه .
وبعدها استحسنا هذه المحاولات الأدبية . . فكنا فى كل أسبوع يتناول
أحدنا آية ويقرض شعرا فى معانيها . . فكان القرآن الكريم بالنسبة لنا ،
وسوف يظل لكل أبناء الضاد من الأدباء ، نبعا لا ينضب للوحى الأدبى .

معانى الآيات .. نصوغها بالشعر

. . وفى سياق ما ذكره إمام الدعاة ، فضيلة الشيخ الشعراوى ، فى حلقة الجمعة الماضية التى انتهت برواية تسابق أعضاء جمعية الأدباء فى تحويل معانى الآيات القرآنية إلى قصائد شعر . . كان من بينها ما أعجب بها افقاء الشيخ الشعراوى أشد الإعجاب ، إلى حد طبعها على نفقتهم وتوزيعها .

يقول إمام الدعاة :

ومن أبيات الشعر التى أعتز بها ، ما قلته فى تلك الآونة فى معنى الرزق ورؤية الناس له . . فقد قلت :

تحرى إلى الرزق أسبابه

ولا تشغلن بعدها بالك

فإنك تجهل عنوانه

ورزقك يعرف عنوانك

وعندما سمع سيدنا الشيخ ، الذى كان يدرس لنا التفسير هذه الأبيات ، قال لى : يا ولد هذه لها قصة عندنا فى الأدب .

فسألته : ما هى القصة ؟

فقال : قصة شخص اسمه عروة بن أذينة . . وكان شاعرا بالمدينة ، وضافت به الحال فتذكر صداقته مع هشام بن عبد الملك . . أيام أن كان أمير المدينة ، قبل أن يصبح الخليفة . . فذهب إلى الشام ليعرض تأزم حاله عليه لعله يجد فرجا لكربه .

ولما وصل إليه ، استأذن على هشام ، ودخل . . فسأله هشام : كيف حالك يا عروة؟

فرد : والله إن الحال قد ضاقت بى .

فقال له هشام : ألسنت أنت القائل :

لقد علمت وما الإشراف من خلقي

إن الذى هو رزقى سوف يأتينى

واستطرد هشام متسائلا : فما الذى جعلك تأتى إلى الشام ، وتطلب منى .

فأخرج عروة الذى قال لهشام : جزاك الله عنى خيرا يا أمير المؤمنين . . لقد ذكرت منى ناسيا ، ونهبت منى غافلا . . ثم خرج .

حدث بعدها أن غضب هشام من نفسه ، لأنه رد عروة مكسور الخاطر . . وطلب القائم على خزائن بيت المال ، وأعد لعروة هدية كبيرة ، وحملوها على الجمال . . وقام بها حراس ليلحقوا بعروة فى الطريق . . وكلما وصلوا إلى مرحلة ، يقال لهم : كان هنا ومضى .

وتكرر ذلك مع كل المراحل ، إلى أن وصل الحراس إلى المدينة . . فطرق قائد الركب الباب ، وفتح له عروة . . وقال له : أنا رسول أمير المؤمنين هشام .

فرد عروة : وماذا أفعل لرسول أمير المؤمنين ، وقد ردنى وفعل بى ما قد
عرفتم ؟!

فقال قائد الحراس : تمهل يا أخى . . إن أمير المؤمنين أراد أن يتحفك بهدايا
ثمينة ، وخاف أن تخرج وحدك بها . . فتطاردك اللصوص ، فتركك تعود
إلى المدينة ، وأرسل إليك الهدايا معنا .

ورد عروة : سوف أقبلها ، ولكن قل لأمر المؤمنين : لقد قلت بيتا ونسيت
الآخر .

فسأله قائد الحراس : ما هو ؟ . . فقال عروة :

أسعى له فيعيني طلبه

ولو قعدت أتانى يعينى

وهذا يدلک - فيما يضيفه إمام الدعاة - على حرص أساتذتنا على أن ينموا
فى كل إنسان موهبته ، ويمدوه بوقود التفوق .

وما كنا نستمتع مرة إلى تلاوة قرآنية من فقى القرية ، وبلغ فى القراءة إلى
قصة سيدنا إسماعيل ، ووصل إلى عبارة ﴿ فلما أسلما ﴾ (الصافات :
١٠٣) ، . . أى لما أسلما الاثنان إبراهيم وإسماعيل . . تجسد أمامنا حنان
الأب . فحينما أمر أن يذبح ابنه لم يأخذه غدرا وذبحه . . وإنما أثر مفاتحه فيما
طلب منه ، لكى يشركه فى الثواب . . وبعدها ، فلما أسلما قال له ربنا : ارفع
يدك وفداه .

هذه الحكاية بقيت فى ذهنى يومين . . إلى أن وصلت إلى هذه الكلمات
التي قلت فيها : سلم لربك حكمه فلحكمة يقضيه حتى تستريح وتغنم . .

وهنا قلت لنفسى : ماذا حدث بعد أن أسلما . . فكانت الإجابة أن أول ولد فديناه . . وبشرناه بإسحق . . ومن بعده يعقوب . . وسوف يصبحان نبين . .

أقول هنا إن الإنسان عندما يسلم لله يرد المسألة إلى حكمة . ولا تنسبها إلى نفسك ، وإنما قل من الذى فعلها ؟

وضربت مثلاً لذلك فيما بعد ، عندما كنت فى الجزائر ، فقلت : هب أن لك ولدا ودخل عليك ووجهه ملطخ بالدماء . . بالطبع سوف يكون أول سؤال توجهه إليه : من الذى فعل بك ذلك يا ولدى ؟ فأنت إذن لم ترتب على الحداث حزنا منك عليه ، إلا بعد أن تعرف أولا من الذى ارتكبه . . فإذا قال الولد لك إن عمه هو الذى فعل ذلك . . لا بد أن تسأل أخاك : لماذا فعلت ذلك بابنى ؟ فرجما يقول لك إن الولد كان يجرى وراء سيارة حتى كاد يسقط تحتها وتدممه .

وهذا يعلمنا أن الفعل لا يكره لذاته ، ولكن لمن فعله . . فإن فعله عدو يكون للأمر موقف آخر ، وإن فعله قريب أو حبيب يختلف الأمر . . وإذن عندما تقع علينا أحداث ومصائب لا دخل لنا فيها . ولا نجد لها أسبابا نفهمها . . لا بد أن نقول إن لها حكمة ونتقبلها لكيلا نغضب . . لان الذى أجراها عليك ربك . . وربك حكيم ، وأجرى ما أجراه لحكمة يعلمها هو .

فالإنسان قبل أن يحزن لحدث حل به ، يجب أن يعرف أولا : من الذى فعله ؟ فإذا عرفه ، فقد يعتبر الحدث خيرا بعد أن كان يراه مصيبة .

وكان الكفار يفرحون عندما تصيب المسلمين مصيبة . . فنزل قوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ (التوبة : ٥١) . وليس علينا ، لأن ما

كتب جاء لصالحنا . . وإذن فاعل الفعل هو الذى يحدد إن كنت أغضبت أم لا .

ومن أعز ما أتذكره من هذه السنوات الغالية ، ما كان سائدا من تشجيع الأساتذة لأبنائهم الطلاب ، إلى حد أن كان يقال فى ذلك الزمن إن فلانا تخرج على فلان وفلان .

وكنا أيام دراستنا بالأزهر ، يذهب الواحد منا إلى حلقة من حلقات صحن الأزهر ، ثم يتركها إلى حلقة أخرى . . والشيخ الذى يشده بحديثه يكثر التردد عليه ، ولذلك ، كان يتشر بيننا المبدأ الذى دعا إليه طه حسين : « اقرأ ما شئت على من شئت » . . فلا يحدد شيخا ولا يحدد موضوعا . . فالذى يشدنى فى المنطق أذهب إليه . . والذى يشدنى فى التفسير أنضم إلى حلقة .

ولما تعدد المشايخ ، أصبح الواحد منا مذهبيا بين هذا وذاك . . ولكننا خرجنا بعقيدة مؤداها أن الطالب لا يزهد فى شيخه إلا إذا كان عقله غير موصول بما يتكلم فيه الشيخ . . أى أن يكون الطالب شاردا بذهنه . . فتكون عظمة المعلم أو الشيخ إذن أن يجعل تلميذه مركز الدهن دائما معه ، لأنه لو شرد فى فقرة ، فإنه يصعب عليه إدراك معنى الفقرة التالية الذى يترتب على ما سبقها .

بعكس الحال إذا كانت سلسلة الاستماع والفهم موصولة .

وأضرب هنا مثالا بما كانت ترويه لنا الجذات من حكايات وقصص تستخدم فيها وسائل التشويق والاستحواذ على الدهن حتى نواصل متابعتها . . وكانت الجدة بهذا وهى أمية تدرك بالسليقة مقومات المعلم الناجح .

ليلة الإسراء والمعراج

من أعز ذكرياته قصيدة « الباكورة » عن الإسراء والمعراج التي نظمها الشيخ الشعراوي في عام ١٩٢٨ وهو طالب بالأزهر ، ولم يطبعها إلا في عام ١٩٣٢ . وقد التقت فيها ، كما يقول إمام الدعاة ، أولياته بأخرياته حين شرع في تقديم خواطره مع القرآن الكريم بالتلفزيون عام ١٩٧٢ ، مبتدئاً بتفسير الإسراء والمعراج . . وهذه أبيات من قصيدته .

ياليلة « المعراج » و « الإسراء »

وحى الجلالِ وفثنة الشعراءِ

الدَّهرُ أَجْمَعُ أَنْتَ سِرُّ نَوَاتِهِ

وبما أتاك الله ذاتُ رُواءِ

فَلَكِ العُلا دارتْ عليه شمسُهُ

والشَّمْسُ واحدة من الإنشاءِ

من ذا الذي يخطئ بما استعصى على

« موسى وعيسى » صاحب الإحياءِ

يَا حَبَّبَا «إِسْرَآؤُهُ» وَ «عُرُوجُهُ»
 مِنْ «مَكَّة» أ «الْبَيْت» إِلَى «الزَّرْقَاء»
 اشْتِاقَ طَه «المصطفى» لِمَلِيكِهِ
 يَا حَبَّبَا الْمَشْتِاقَ لِلْعَلِيَاءِ
 قَدْ قَالَ يَا «جَبْرِيلُ» بَلِّغْ خَالِقِي
 أَنِّي أودُّ بَأْنُ أَكْتُـونَ الرَّائِي
 أَرْجُو الْمُثُولَ أَمَامَهُ حَتَّى أَرَى
 ذَاتَا فَهَيَّئْ لِي تَفْزِ بِشَائِي
 ذَهَبَ «الْأَمِينُ» إِلَى الْإِلَهِ مُخْبِرًا
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ نَاءِ
 قَالَ الْإِلَهُ الضَّيْفُ عِنْدِي «أَحْمَدُ»
 أَحْضِرْ يَا «جَبْرِيلُ» تَيَ الْأَضْوَاءِ
 الْأَرْضُ شَرْفَهَا ضِيَاءُ «مُحَمَّدُ»
 فَأَمِثْلُ بِهِ حَتَّى يَزُورَ سَمَائِي
 ذَهَبَ «الْأَمِينُ وَمِيكَائِيلُ» صُحْبَةَ
 أَخَذُوا «رَسُولُ اللَّهِ» لِلْإِنْسَاءِ
 قَدْ يَمَّمَا بِثَرَاءِ «لَزْمُزْمِ» نَابِعًا
 لِيَطَهَّرَا قُلُوبَالَهُ بِالْمَاءِ

ذهباً فشقاً صدره بمروءة
 غسله غسلك أنظف الأشياء
 ملأه إيماناً وعلماً راسخاً
 قد أنلجأه بحكمة الحكماء
 خلأه توّاً «كالنطاسي» بارعاً
 لكنّهما «نطس» بغير دواء
 ختماه ختماً للنّبوة محكماً
 وأتى «البراق» «لأحمد» بولاء
 لا بالذكور والمؤنث مَسْرُج
 خير المطايا مركب السّعداء
 هو جامع من كلّ حسن خلقه
 مُتوسّط في الخفض والإعلاء
 رَجُلٌ بلاه بلّ ويداها عند ضرورة
 قصرت وطالت ساقها برضاء
 وخطاه في قطع الفلاة كلّ لحظة
 ولحاظه استولت على أرجاء
 ركب الرسول عليه جلّ مقامه
 ومشى البراق بمشية الخيلاء

ساروا إلى الأقصى يُنارُ برُكبهم
كالشمس فوق القبة الزرقاء
قطعوا الفيافي والقفار كطرفة
للعين أو كإشارة الإيماء
رأوا العجائب في الطريق بأسرها
صلوا سويًا عند « طور سَيْناء »

* * *

« المسجد الأقصى » رأوا فتَهَلَّلُوا
نزل النبي ببسابه بمضياء
أخذ البراق الوحي جبريل العُلا
لوكائه في الصخرة الصماء
دخل « النبي البيت » بذرا ساطعاً
فأعساره نُسورا يراه النَّائِي
صلّى الملائك خلف أحمد هم على
دين « الخليل » وأعلنوا بدُعاء
رسلا يلي ضرباً سقوه ظامئاً
ورَوَّوه من هَذَا بديل الماء

وقد أنتهى الإسراء مقطوعاً به
وعُرِجُهُ بالجسم ذاك الجاني
جاءوا بمرقاة من الذهب الذى
هو عسجد يذمى عيون الرائي
صعد « النبی » إلى السماء مكبراً
« جبريل » « ميكائيل » كالعُشراء
ساروا بقدرته كأن طريقهم
جسر عريض مُريم بفضاء
لما أتوا « أولى » السماوات العُلا
قرع « الأمين » لبابها بمضاء

قال « الموكل » بالسماء مخاطباً
« جبريل » هذا قائد الأضواء
من معك يا « جبريل » ؟ قال « محمد »
نور الهداية صادقُ الأنبياء
سأل « الموكل » هل حظى برسالة
فأجابه : مهّدى إلى الغبراء
فَتَحَ « الموكل بالسماء » فأذابه
أصل الخليقة دوحه الآباء

نوران قد لمعا على أرجائها
 وترى « السماء » تزينت ببهاء
 وأراه « آدم » كل شيء فوقها
 متهللاً بفضيلة شماء
 صعد « النبي » لما يليها شاكراً
 لله من نعم وخير عطاء
 جبريل يفرع بابها مستأذناً
 ردّ الموكل سائلاً بوفاء
 من معك يا جبريل ؟ قال محمد
 خير البرية « أحمد » الوجهاء
 فتح السماء مرحباً « بمحمد »
 عيسى : كذا : يحيى : من الشهداء
 قد قابلاه بكل بشر واضح
 « يا مرحباً » بالقادم الوضاء
 دعوا له بالخير خالص دعوة
 وكذا يكون الحب للنبيهاء
 صعد « النبي » مع الأمين إلى العلا
 وصلا « الثالثة » بغير غناء

جبريل يفرع بابها لولوجه
 مرحاً فَقَالَ « موكل » بِسَمَاء
 من معك يا « جبريل » ؟ قال « مُحمد »
 قطب الوجود و « أحمد » النبلاء
 فتح السماء مرحباً « بِمحمد »
 فإذا « بيوسف » فاتنِ الحُسْناء
 حياه خير تحية ممزوجة
 حُبباء وذلك أعظم الآلاء
 وصلا « لرابعة » السموات العلا
 « جبريل » يفرعها بخير نداء
 من معك يا « جبريل » ؟ قال : « مُحمد »
 ضيفُ العُلا ومُنور الأَرْجاء
 فتح « الموكل » بالسَّما . فإذا به
 « إدريس » قوم صادقُ الأنبياء
 فدعاه بالخير حتى المرتقى
 صعدا « لخامسة » بغير ثناء
 قرع « الأمين » لبابها مستأذنا
 قال « الموكل » من بباب سمائي ؟

فأجابه : « جبريل » فافتح بابها
سأل « الموكل » قائل البلاء
من معك يا « جبريل » ؟ قال « محمد »
مستأصل الأشرار بالأبراء
فتح « الموكل » بالسَّما فإذا به
« ذو اللحية البيضاء »
صعدا « لسادسة » السَّموات العلا
ومحمد هو أفضل النزلاء
قرع « الأمين » لبابها مُستأذنا
سأل الذي فيها بكل حياء
من معك يا « جبريل » ؟ قال : « محمد »
هادى البرايا أول الشفعاء
فتح الذين ببابها وتهللوا
وإذا بحفل كان كالجماء
إذا « بُوسى » بينهم متهلل
و « محمد » كالزهرة الفيحاء
صعدا « لسابعة » السَّموات العلا
حتى أتوها جيئة الأنواء

قرع « الأمين » لبابها مُستأذنا
سأل الذي فيها بكلّ حياء
من مُعك يا « جبريل » ؟ قال : محمد
تاج الفخار و« مصطفى » الأسماء

من معك يا « جبريل » ؟ قال « محمد »

فى حديث الذكريات عن قصيدته « ليلة الإسراء والمعراج » التى نظمها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عام ١٩٢٨ ، وهو لم يزل تلميذا بالإعدادية الأزهرية ، ولم تتسع الصفحة لنشر سوى الجزء الأول منها الجمعة الماضية لامتدادها إلى ٢٢٦ بيتا ، يبدى إمام الدعاة اعتزازه الكبير بالعبارة الرقيقة التى قدم بها رفيق عمره الكاتب محمد فهمى عبد اللطيف القصيدة إلى القراء أول مرة قائلا : إنها قصيدة طويلة النفس ، لا يقدر عليها سوى كبار الشعراء من أمثال بشار بن برد ومهيار الدهلى .

والجزء الثانى من قصيدة « الباكورة » فى الإسراء والمعراج الذى تنشره صفحة اليوم . . كانت آخر الأبيات التى سبقته فى نهاية الجزء الأول الجمعة الماضية تقول :

قرع الأمين لبابها مستأذنا

سأل الذى فيها بكل حياء

من معك يا « جبريل » قال « محمد »

تاج الفخار ومصطفى الأسماء

ويستطرد إمام الدعاة . . الشيخ الذي بزغت ولعت شاعريته مبكرا . .
منشدا في الجزء الثاني من قصيدته « الإسراء والمعراج » :

فتح « الموكل » مُسرعا ومرحبا
فلإذا « خليلُ الله » جال للقاء
وأراه « أمته » : أراه مقامها
في جنة « الأخرى » بغير خفاء
وأراه شيئا غاب عنى وصفه
وأراه ماوى محتد الأكفاء
ورأى « النبي » عجائباً فى طيّها
للكافرين به وللأعداء
وصلا إلى : المعمور : ثم لسذرة
المنتهى عن صادق الإيحاء
وهنا ترى « جبريل » ذا متأخرا
عن سيّره فرنا له بندا
أكذاك يترك كل خل خله
عند الشّدائد ؟ لا تكن متنائى
فأجابه هذا مُقامى يا « أخى »
وسأحرقن إذا تركت بقائى

لكن تقدّم للعُلا في مَأْمَن
والله إنَّكَ أرفع الأشياء
حُجُب «لطف المصطفى» قد فتّحت
فاجتازها في مَأْمَن ورخاء
قد زجّ في بحر من النور الذي
هو نور وجه الله خير ضياء
ورأى الإله بغير كيف رؤية
بالعين فاقطع مَرِيَّة الجُهلاء
ودنا من «المخمود» جلّ جلاله
قال : التَّحِيَّةُ خالقَ الأَرْجاء
قال : السَّلام عليك يا خير الملا
أهلاً بمطلوبى وعز سمانى
أُبدي له كل الفضائل ساقياً
كأس المحبة «أحمدا» بصفاء
غمس «النبي» ببحر ماء جلاله
ووقاره وسقاه بالصهباء
فرض «الإله» على «النبي» لأمة
خمسين فرضاً واجبى الأداء

حظى النبى محمد بالهه
وقد انثنى المحفوف بالأداء
ولذا موسى قال : كم فرضا لكم؟
فأجابه : خمسون للأداء
قال : ارجع فسله كى يخفف ريكم
فرضا فأنتم أضعف الأبناء
رجع النبى إلى الإله مكررا
بقيت خمس بخير جزاء
نزل النبى وقد تحلى بالعللا
وأتى بخير شريعة : ؟ سمحاء
والسر فى تزويد موسى أحمدا
كى يستريح محمد النبلاء
ركب النبى مفاخرا ببراقه
جبريل سار به بغير تناء
نظرا « لغير » فى الطريق فإذ به
هو من قريش وقد رنا بندا
قالوا لذلك صوت « طه أحمد »
والله خصصهم من الشهداء

عرف « النبي » صفات غيرهم لكي
يجلي قلوبهم من الأصداء
ذهب « النبي » إلى مقر مقامه
ومكانه بحرارة البرحاء
لما بدا فلق الصباح بنوره
وأتى - أبو جهل أبو الجهلاء
قص النبي عليه خبرا صادقا
فأتاه بالآباء والأبناء
حقا « أبو جهل » له الجهل انتمى
جهل المعارض ذاك أفحش داء
قد كذبوه سوى « أبي بكر » فقد
وافاه بالتصديق والإصغاء
قد لقبوك « أمينهم » يا مصطفى
مذ كنت طفلا صادق الأنباء
فعلام قاموا ينقضون كلامهم ؟
عجبا ! يجي البرء بالإشفاء ؟
قالوا : بعيد أن يكون مقالاه
فأجابهم : يأتيكم ونصرائي

يأتكمو « عير » لكم هو ناظري
 فسلوه يخبركم بتي الأنباء
 جلسوا لمقدم « عيرهم » فتأخرت
 والشمس قد حانت إلى الإخفاء
 فدعا « النبي » إلى « الإله » فردها
 حتى أتى « عير » لهم بولاء
 قالوا : رأينا ركبته ليلا سري
 قُطعوا لسان الزور للجهلاء
 هي من عواطفٍ وامن متوسل
 ناء فجاء بها كما التأساء
 منى إلى « روح النبي » تحية
 في مدحه هي من دليل ولائي
 لا عيب إن ند الفصيح فكونها
 في المصطفى قد زاد من خيلائي
 « مولاي » عذراً في سَمَاحٍ إنني
 لك جدُّ مُشتاقٍ وتلك عزائي
 مالي ومدح « أبي المكارم » كلها
 من ألفها حتى انتهاء الياء

يَا رَبِّ صَلِّ عَلَيْهِ صَلَاحُ آلِهِ
وَالصَّحْبِ وَالْأَخْبَابِ وَالْخُلَصَاءِ
مَا أَشْرَقَتْ شَمْسٌ وَمَا قَالَ الْفَتَى
يَا لَيْلَةَ الْمَغْرَجِ وَالْإِسْرَاءِ

ورحل عنا ترجمان القرآن

د. أحمد كمال أبوالمجد

من غرائب الطبيعة الإنسانية ، أننا لا ندرك قدر النعمة التي ننعيم بها إلا حين تزول عنا ، ولا نعرف قدر من نحبههم ونجلهم إلا بعد أن يفارقونا . . ولقد كان الشيخ الشعراوي - عليه رحمة الله - نعمة كبيرة أنعم الله بها على أهل هذا العصر ، فعرفها أكثرهم ، وأنكرها أقلهم . ولكننا - نحن المحيين له والعارفين قدره ومكانته - ظللنا نتعامل معه كما لو كان «ظاهرة» باقية ، لا تتصور غيابها ، ولا نهية أنفسنا لزوالتها . وحتى حين كان يمرض وتعتل صحته ، كنا نقصر أحياناً في السؤال عنه والدعاء له ، والاطمئنان عليه ، متصورين - رغم إيماننا بأن لكل أجل كتاب - أن مآل مرضه إلى زوال ، وأن عافيته لن تلبث أن تعود إليه ، وأنه لن يلبث أن يطل علينا في مجالسه ولقاءاته ومن خلال شاشات التلفزيون . . يحمل مصحفه في يده ، وتعلو نبرات صوته بكلمات الله ، يفجر بها ينابيع الخير في النفوس ، ويملأ طباق الأرض علما ونورا ترتوي منهما العقول والقلوب . . وحين فاجأني النبأ الفاجع صباح الأربعاء يوم السابع عشر من شهر يونيو ، استولى على شعوري أن لم أملك لهما دفعا : أولهما : شعور بالألم الهائل لأن شواغل الحياة ، وما أكثرها ، حالت بيني وبين رؤيته في أيام مرضه الأخير ، وقد كنت - علم الله - شديد الحرص على لقائه وسماع كلماته النيرات ، والمشاركة - مع محبيه - في إيناسه والالتفاف حوله والدعاء له . أما

الآخر: فإشفاق على أهل هذا العصر من أمتنا، ونحن نرى العلماء العاملين من أهل البصيرة والصدق والصلاح، يرحلون عن عالمنا واحد بعد الآخر، تاركين الجيل يتلفت حوله باحثاً عن أخلاف يحملون راية العلم والهداية والفلاح. . ففي أقل من عامين رحل عن عالمنا الشيخ جاد الحق، والشيخ خالد محمد خالد، والشيخ محمد الغزالي. . عليهم رحمة الله ورضوانه. .

وبين هذا الحزن وذلك الإشفاق، عدت استرجع مكانة الشيخ الشعراوي وأتأمل أثره الهائل في حياة هذا الجيل. . وتذكرت أنه كان لي يوماً شرف تقديمه - منذ أعوام - إلى المشاركين في لقاء شعبي واسع في حلوان فلم أجد في وصفه خيراً من أن أقول إنه «ترجمان القرآن لأهل هذا الزمان»، وكنت ولا أزال - أو من بأن هذا هو جوهر العطاء الذي قدمه الشيخ الشعراوي لأهل الأرض أجمعين، فلقد جاء - رحمه الله - في عصر تباعد الناس فيه عن كتاب الله - اشتغالا بالدنيا، أو افتتاناً بمذاهب وأفكار ليس للإيمان في عالمها مكان. . أو عجزاً عن التواصل مع كلمات الله، بسبب الجهل الفاضح بأبجديات اللغة العربية التي نزل بها القرآن. . حتى صار كثير من الموقنين الصالحين لا يנהلون من فضل القرآن إلا فضل تلاوته والتعبدة، دون أن تفتح عقولهم وقلوبهم لاستقبال النبأ العظيم والدخول إلى العالم الرحب الفسيح الذي فتحه الوحي للإنسان حين تنزل عليه بكلمات رب الناس. . ولكن لله حكمة هو بالغها، وله - سبحانه - جنود السموات والأرض. . فجاء الشيخ الشعراوي بادئاً كما يبدأ مئات العلماء والمعلمين. . أستاذاً للبلاغة. . يحمل رسالة الأزهر الشريف هنا في مصر. . ثم في المملكة العربية السعودية. . ويشارك في الحياة السياسية منذ شبابه، مؤكداً تواصل الدين والدنيا، وارتباط التقوى الفردية بالفلاح الجماعي. وفجأة، وبغير تدبير منه، يتفجر العلم، وتفيض البصيرة،

وينطلق اللسان، ويتتشر النور على لسان ذلك العبد الصالح المبين، فلماذا بالسدود العالية التى كانت تحول بين كلمات الله وبين عقول وقلوب الملايين، تنهار سدا بعد سد، وإذا بالوحى يعود فى وجدانهم واضحا متألقا يحمل نبض السماء، وإذا بالثقافة الإيمانية تصبح لغة الجماهير، مكتسحة فى طريقها أو شاب الفكر المادى، وبقايا الشك والعرقية والإلحاد وقسوة القلوب، وإذا القرآن العظيم يتحول . على لسان ذلك الداعى المؤمن من أحرف يرددها أكثر الناس فى غير وعى ولا فقه، إلى حياة كاملة ملؤها الخير والعطاء والفلاح والإصلاح بين الناس . .

ويمتد هذا الفيض عابرا جميع الحدود، وتصل به كلمات الوحى حية مشرقة إلى أركان الدنيا الأربعة . . وإذا المسلمون على امتداد عالمهم الواسع ينهلون منه، كل على قدر طاقته، حتى إذا جاء شهر رمضان من كل عام، إذا بأحاديث الشيخ الشعراوى توشك أن تتحول فى حياة الناس إلى نافلة من نوافل الثقافة والعلم الدينى، يلتف حولها الرجال والنساء والأطفال، يجددون بها إيمانهم، ويتعرفون من خلالها إلى كتاب ربهم . .

لهذا كله، ما كاد النبأ الفاجع يتردد بين ملايين المسلمين، حتى أحسوا جميعا بالخسارة الفادحة . . ووقفوا يتأملون سيرة هذا الإمام الكبير الذى عاملوه فى حياتهم معاملة «الظاهرة الكونية» حتى أذهلهم ذلك عن مكانته الإنسانية الخاصة التى احتلها فى سماحة وبشر وتواضع فى عقولهم وقلوبهم . . وفى قريته من ريف مصر العربية المسلمة خرج مئات الألوف من محبيه ومريده، وعارفى فضله يعلنون على الدنيا كلها أن الأرض لن تخلو أبدا من قائم لله بحجة، وأن هذه الشعبية الهائلة التى اكتسبها ذلك الرجل الربانى الصالح ليست إلا تعبيراً عفويا تلقائيا لا تغيب دلالة عن حقيقة روح الامة

وتوجهها الثقافى ، وأنه توجه إيمانى إنسانى حاسم لا راد له ولا صارف عنه . .
وأن واجب العلماء والأمراء جميعاً أن يحرسوا هذا التوجه ، وأن يوظفوا
الطاقة العظيمة التى يفجرها لما فيه خير الامة ونهضتها ، وأن يقوموا على
حمايته من الذين يوجهون إليه السهام المسمومة ، إسرافاً فى التخوف من
عواقبه ، أو جهلاً وسوء ظن بمقاصده . . وأن يحرسوه كذلك من الذين تغيب
عنهم هذه المقاصد فيوجهوه وجهة الجمود والتراجع بدلاً من التجديد والتقدم ،
ووجهة الهدم بدلاً من وجهة الإحياء والبناء . . وهكذا ، كان الشيخ الشعراوى
- أنزله الله منازل الصديقين والصالحين . ترجمانا للقرآن بين أهل هذا الزمان ،
وكانت شعبية الكاسحة تعبيراً أميناً عن حقيقة التوجه الإيمانى لهذه الأمة .
وهكذا نفعنا الله به فى موته ، كما نفعنا به فى حياته ، وتلك آية الصالحين
المصلحين .

ذكرى محاسن الأفاضل تتحول إلى عزاء للنفس

د. إبراهيم بدران

الحمد لله رب العالمين الذي قال في محكم كتابه ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمل وهو العزيز المغفور﴾ (سورة الملك آية: ٢) .

أنه يعز على النفس أن تنعى من تحب ، ولكن ذكر محاسن الأفاضل تتحول إلى عزاء للنفس خاصة عندما تفقد صديقا وداعيا ومجاهدا في الله . نعم لقد كان صديقا - فقد تعرفت عليه من الصديق أحمد فراج في برنامج نور على نور وحضرت جلساته في منزل شيخنا المرحوم الأستاذ سيد جلال في جلسات دينية زاخرة . وعمقت صداقتنا يوم حلفنا اليمين لتولى مسئولية الوزارة في شهر أكتوبر سنة ١٩٧٦ وكان مجلسي في اجتماعات المجلس بجواره - صلة روحية وعلاقة في الله والوطن وصلت إلى محبة واحترام وإعجاب ، صلة أسأل الله أن لا تنقطع حتى نلقى المولى في رضاه وإحسانه وعدله .

لقد كان من حظي أن أجاوره منذ حلف اليمين ولكن علاقتي به تعمقت عندما أصيب بالتهاب رئوي كاد يسبب هبوطا في القلب مما استدعى احتجازه في غرفته بوزارة الأوقاف ولازمته حوالى ثلاثة أسابيع - ونجحنا في إيقاف عادة التدخين المستمر التي استمرت معه أكثر من أربعين سنة وتسببت في تلف شديد في الرئتين وفي تلك المرحلة من حياتنا أذكر له بعض الكلمات والمواقف

فبعد أن حلفنا اليمين - قلت له يا مولانا هذا طريق جديد ادع لنا أن يوفقنا حتى نقوم بواجبنا في مرضاته وكان رده « الله أقام العباد حيث أراد » ودعوتى أن يلهمنا سبيل التوفيق ويبعد عنا طريق الخطأ فإن من سلك مسالك التهم ولا فضل له .

والصورة أو الموقف الذى لا أنساه عندما دعتنا أساتذتنا الدكتور زهيرة عابدين وزوجها أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو الفضل فى احتفال بمعهد صحة الطفل فى سفح الهرم وحضر الاحتفال مولانا المرحوم الشيخ عبدالحليم محمود وكان شيخا للأزهر الشريف وصلنا وكان الإمام عبد الحليم محمود فى انتظارنا فما كان من الشيخ الشعراوى وهو وزير الأوقاف إلا أنه انحنى وقبل يدى شيخ الأزهر وأخذ بيده حتى أجلسه ومكث يحاكيه جالسا على الأرض بين يديه صورة لا أنساها فى توقيير التلميذ مهما علا لأستاذه ومعلمه وقمة الاحترام لإمام المسلمين ، وما لا أنساه ذلك اليوم أنه دعى الشيخ عبدالحليم للترحيب بالشيخ الوزير فقال « لن أتحدث اليوم لأننى أحب أن أستمع لكلام محمد الشعراوى » .

واستطردا لرحلة الوزارة التى انتهت فى أكتوبر سنة ١٩٧٨ وفى جلسة الوداع خاطب الشيخ الشعراوى رئيس الوزراء المرحوم ممدوح سالم فقال له «ياسى ممدوح بك الحمد لله الذى أذاقنا طعم هذه الوظيفة (أى الوزارة) حتى لا تشتهيها أنفسنا بعد اليوم وحتى نعود إلى ما كُلفنا به من الدعوة إلى الله ما تبقى من العمر » وقد وفى بوعده لقد كان تخصص الإمام فى اللغة العربية وأصولها وكان لهوآيته فى الشعر الجاهلى باع طويل فقد كان رضى الله عنه يفخر بأنه يحفظ مئة ألف بيت للشعر علاوة على تجويده للقرآن الكريم والتفسير والأحاديث وكان ضليعا فى سير الأنبياء وأخبار الصحابة والصالحين والعلماء

لقد كان أيضا مستمعا متميزا مدققا لكل جديد يسمعه فى أى علم يمر فى طريقه يستفسر ويسأل حتى يتبين كل ما يحتاجه لتفهم الموضوع من المتخصصين - يحفظها ويحصرها ويهضمها ثم تراه فى أول طور بعدها يستشهد بهذه المعلومات والحقائق العلمية لإبراز قدرة الله وعلمه الذى وسع كل شىء حتى وصفه بعض العارفين بفضلله أنه كان قرآنا مفسرا يمشى على الأرض .

لقد كانت له القدرة على تبسيط المعلومات وأفاد الدعوة فى جميع الأقطار الإسلامية بإسلوب لم يحاكيه فيه أحد من قبل . ومنذ بداية برنامج نور على نور الذى كان يتولاه الأستاذ أحمد فراج منذ الستينات والناس ينتظرون ساعة حديثه - إصغاء وإعجابا وتعلما - تجتمع الأسر والجماعات يتمتعون بتخريجاته القرآنية التى لم يسبقه إليها أحد ولم يجدها أحد فى المراجع والتفاسير وكأنها إلهاما وفتحا لإلهيا أنعم الله به عليه . وكانت له القدرة على تبسيط المعارف الدينية وربطها اجتهادا والعلوم الدنيوية فى جرة يسعد بها العالم ويستوعبها الرجل البسيط ويقترّب من نفس الطفل كما يجتذب عقل الراشد . كل ذلك فى صورة جاذبيته الكاريزمية الجذابة وقدرته على التقرب إلى العقل وتجميع القلوب بلغة مبسطة حتى فى أصعب المواضيع ومكتته من اللغة العربية وتعمقه فى تخصصه فى أصول تركيبات الكلام ومعانى الحروف وتأثيرها فى المعنى وتداخل الألفاظ وتسلسل المعانى وربط الحقائق فى مختلف المقامات والسور تلك كانت موهبة الشيخ الشعراوى حتى وصفه البعض بأنه «فارس من فرسان الكلم» مستغلا هذه القدرة الجبارة فى الاستنباط والتخريج للمعانى القرآنية ببساطة وجاذبية نادرة تقبلها الأذان وتستوعبها العقول .

لقد كان - رحمه الله - بوقفة ربانية انصهر فيها الدين والإيمان والثقافة والمعارف لغة وتاريخا وعلمًا، مزيج فريد له مذاق خاص يجتاح القلوب وكان

مدرسا موهوبا وداعيا جاذبا لكل من يستمع إليه فى سلاسة و «خفة روح»
وتعليقات مرحة ، يطلقها لتأكيد معنى يرغب فى غرسه فى أسماع الناس
ليعملوا به إن كان خيرا ويجتنبوه إن لم يكن كذلك .

لقد كان ديدنه التوفيق الإلهى الذى يوفق إليه نقاء السريرة والإيمان المطلق
والإخلاص للدعوة والتفانى فيها - ولقد استمر رحمه الله فى أداء مسئوليته
التي سخر لها واستخدمه ربه فيها حتى أتاها اليقين وفقد النطق وهو يذكر الله .

رحم الله شيخنا وأستاذنا الشيخ محمد متولى الشعراوى عالما لا يوجد
الزمان بمثله داعيا إلى الله بإذنه وفضله وقرآنه محققا المحبة بين أهل وطنه وإن
اختلفت عقائدهم ومؤكدا الوسطية المعتدلة التي دعا إليها الإسلام فى كتاب
الله وسنة رسوله .

اللهم أكرم مثواه وطيب ثراه واجعله مع الشهداء والقديسين والصالحين
وحسن أولئك رفيقا .

اللهم عوض أمتة الإسلامية والعربية وأهله فى مصر كلها وأسرته المصابة
ومحبيه وعارفى فضله - اللهم ألهمهم الصبر والإيمان لقبول قضاء الله الواقع -
اللهم ألهمهم القيم التي كان يدعو لها ، اللهم جمع شمل العلماء المسلمين
وأهل العلم من العلماء المختلفين وألف بين قلوبهم ليسيروا على نهجه
ويكملوا طريقه ويخرجوا ما عندهم من علم ليرشدوا الأمة المصرية والعربية
إلى طريق الرشاد - رحمة للعباد حتى تستمر الدعوة إلى الله الحق على أيدي
كل قادر .

وفى جنة الخلد أيها الصديق الداعى المخلص لله .

الفهرس

| | |
|----|---|
| ٥ | مقدمة |
| | رحلة حياة زاخرة بالعلم النافع |
| ٧ | فضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوى - شيخ الجامع الأزهر |
| | عظيم من القلة التى تزدهر بهم الحياة |
| ١١ | د. محمود حمدى زقزوق - وزير الأوقاف |
| | إمام الدعاة ومجدد هذا القرن |
| ١٥ | د. أحمد عمر هاشم - رئيس جامعة الأزهر |
| ٢١ | إهداء |
| | الدنيا يجب أن تكون فى أحضان الدين |
| ٢٣ | والدين يجب أن يكون أستاذ الدنيا |
| ٢٥ | هذا بنى ، اكسر له ضلعا . وأنا أعالجه |
| ٣٠ | فى مواجهة الهجانة |
| ٣٤ | دروس من أيام «الفلكة» ! |
| ٣٩ | حكائى مع الشيطان |
| ٤٤ | أزهرى .. رغم أنفى ! |
| ٥٠ | تجربتى .. مع الربا ! |
| ٥٦ | فى جوار سعد زغلول |
| ٦١ | عرفونى .. شاعرا ! |
| ٦٦ | الخروج .. من المأزق |
| ٦٩ | مع عبدالناصر وشوقى |

| | |
|-----|--|
| ٧٤ | مولد العذراء .. والوشم ! .. |
| ٨٠ | الخلاص .. من «مركب النقص» .. |
| ٨٥ | أيام كنت زعيما للطلبة .. |
| ٩٠ | الزواج بعد الابتدائية .. |
| ٩٥ | شر .. جاء بخيرا ! .. |
| ١٠١ | مع أساطين الفن الأربعة .. |
| ١٠٦ | معاني الآيات .. نصوغها بالشعر .. |
| ١١١ | ليلة الإسراء والمعراج .. |
| ١٢٠ | من معك يا «جبريل» ؟ قال «محمد» .. |
| ١٢٧ | ورحل عنا ترجمان القرآن - د. أحمد كمال أبو المجد .. |
| ١٣١ | ذكرى محاسن الأفاذاذ تتحول إلى عزاء للنفس - د. إبراهيم بدران .. |



رقم الإيداع : ٩٨ / ٨٩٥٣

التقييم الدولي : 0 - 0474 - 09 - I.S.B.N 977

مطابع الشروق

القاهرة ٨: شارع سيويه المصري - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مذكرات إمام الدعاة

« والحق أن هذه المذكرات هي دروس زاخرة بتجارب الحياة ، التي يجب على كل عاقل أن يستفيد منها ما ينفعه في دينه وفي دنياه » .

فضيلة الإمام الأكبر

د. محمد سيد طنطاوي

شيخ الأزهر

« لقد امتد عطاء الشيخ الشعراوي إلى أكثر من نصف قرن من الزمان ، في عصر اختلطت فيه المفاهيم واضطربت فيه الرؤى الدينية ، فكان الشيخ الشعراوي نجما ساطعا يضيء في سماء الأمة ، يجعل صوته بالحق فيزهق باطل الأدعياء » .

د. محمود حمدي زقزوق

« رحم الله شيخنا وأستاذنا الشيخ محمد متولى الشعراوي عالما لا يجود الزمان بمثله داعيا إلى الله بإذنه وفضله وقرآنه محققا المحبة بين أهل وطنه وإن اختلفت عقائدهم ومؤكدا الوسطية المعتدلة التي دعا إليها الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله »

د. إبراهيم بدران

« لم أجد في وصفه خيرا من أن أقول إنه « ترجمان القرآن لأهل هذا الزمان » . وكنت - ولا أزال - أؤمن بأن هذا هو جوهر العطاء الذي قدمه الشيخ الشعراوي لأهل الأرض أجمعين » .

د. أحمد كمال أبوالمجد

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيدي البرقوقي - رابعة العصرية - مدينة نصر
م. ب : ٣٣ الهادراما - طينين : ٤٠٢٣٩٩ - لافس : ٤٠٢٧٥٦٧ - (٢٠٦)
بيروت : م. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٢١٥٨٨١ - ٨١٧٣١٣ - فاكس : ٨١٧٣١٤ (٢٦٦)